عبد القادر الغزالي

اللسانيات ونظرية التواصل



دار الحوار

د. عبد القادر الغزالي

اللســانيات ونظـرية التواصـل

رومان ياكوبسون نموذجاً

دار الحوار

* اللسانيات ونظرية التواصل

*تأليف: د. عبد القادر الغزالي

* الطبعة الأولى 2003

* الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية ــ اللاذقية ــ ص. ب 1018

هاتف وفاكس: 963 41 422339

البريد الإلكتروني: soleman@scs-net.org

الموضــوع:

من القضايا الأساسية التي تشــغل المهتمــين فــي حقــل الدراسات الشعرية في الزمن الحاضر، قضية تأســيس علــم خاص بالشعر، مستقل بموضوعه، وأدواته الإجرائية، ومتميز بصرامته وملاءمته لمجالات تخصصه. وتتعدد في هذا المنحى الأبحاث الشعرية بتعدد وتنوع الفتــرات الزمنيــة والأنمــاط الإبداعية والاستراتيجيات النظرية.

لقد ساهم المخزون القديم المتعلق بالشــعرية: ابتــداء مــن أرسطو المعلم الأول للشعرية إلى الشعريات العربيــة وغيــر العربية التي تنوعت نماذج صياغتها ومناطق اشتغالها، ثم إلى الشعريات الأوروبية الحديثة في بلورة تصورات جديدة تهدف،

أولاً إلى قراءة هذا المخزون ونقده، وتهدف، ثانياً إلى تأسيس شعرية تستجيب لمتطلبات الأثر الفني.

إن الدفعة الخلاقة التي أحدثتها الشكلانية الروسية، فضلاً عن التنوع والتطور الذي حصل في حقول المعرفة الإنسانية، قد غيّرا مسار الاشتغال على النصوص الفنية، حيث سُجل في بداية هذا القرن لقاء بارز بين "الشعرية" و"اللسانيات" التي عرفت نقطة انطلاقها العلمية مع فرديناند دوسوسير بعد تحديد موضوعها وخلق أدواتها وضبط حدودها.

لقد استند اللقاء الذي حصل بين الشعرية واللسانيات إلى عدة أسس نظرية وعملية ترفعه إلى مرتبة الموضوع الملح في حقل الشعرية لما يثيره من أسئلة محورية تتعلق بطبيعة العلمين وأشكال اندماجهما أو انفصالهما.

ومن ثم، فإن الأسئلة المفجرة الجديدة في حقل الدراسة النقدية للشعر بخاصة، اتخذت منحى تأسيسيًا يحاول إعادة بناء موضوع الشعر، وإعادة قراءة الخطاب النظري المتعلق بهذا "الجنس".

لقد خطت الشعرية الحديثة خطوات بارزة تمكنت بواسطتها من بلورة تراكمات نقدية مثلت تاريخاً يمكن أن يبدأ مع المعلم الثاني للشعرية في العصر الحديث، رومان ياكوبسون.

إن قراءة أعمال هذا العالم المتبحر تبدو من الأساسيات التي تمثل الخطوة اللازمة لفهم الجدل المعاصر حول الشعر، ولبلورة نظرية شعرية متماسكة تحفظ للشعر تنوعه وخصوبته.

ونظراً لضخامة مشروع قراءة هذا العالم، لتنوع وتعدد اختصاصاته: اللسانيات، الفونولوجيا، الانطروبولوجيا، الشعرية... وغنى وزخم إبداعاته واكتشافاته العلمية، فإننا نقتصر على إضاءة بعض المحاور التي تتعلق بموضوع الشعرية وعلاقتها باللسانيات، وذلك لفهم أجزاء الإشكال: طبيعته وموضوعه، نمط أسئلته وحدود اشتغالاته.

إن الوصول إلى هذا المرمى يستلزم أولاً اختياراً تتحكم فيه معطيات عديدة نذكر منها: عدم ترجمة نصوص رومان ياكوبسون في الشعرية واللسانيات، فلم تترجم، حتى الآن، سوى أربع مقالات (انظر رومان ياكوبسون: "قضايا الشعرية" ترجمة محمد الولي ومبارك حنون)*، هذه الوضعية تستدعي أن ترتبط الخطوة الأولى بالاعتماد على مقالات أخرى ترتبط بالمحاور التي نود إلقاء الضوء على أجزاءها.

ـ إن كثيراً من القضايا الأساسية تتطلب إعادة التعريف بها، خاصة في اللغة العربية.

ـ تمثل نظرية رومان ياكوبسون في الشعرية واللسانيات لحظة التأمل البنيوي في هذين المجالين وغيرهما من المجالات الإنسانية الأخرى، الشيء الذي يطبع معظم أجزاء النظرية بتنضم ثريٌ تجسده إحالات مرجعية تستقي منابعها من هذه العلوم.

وعلى هذا الأساس، فإن الاختيار المنهجي تمثل في ربط الجسور بين الطروحات والإشكالات النظرية والتطبيقية في حقل الشعرية واللسانيات.

وحتى لا نتيه في منعرجات البحث فقد كان المنهج الوصفي هاديا لأجزاء هذا الموضوع، لأن اللحظة الأولى ينبغي أن تأخذ صبغة معرفية، وذلك لإعادة طرح القضية بمحاورها وأجزائها؛ ثم، بعد ذلك تفكيكها وتركيبها. عند هذا الحد نقف آملين أن تتوج اللحظة الثانية بدراسة تستكمل القضايا الأخرى وتتناول النظرية بأكملها تناولاً نقدياً مقارناً.

* بعد إنجاز هذا البحث بسنوات تمّ نشر كتاب مترجم: لـ إلمار هولنشتاين: رومان ياكوبسون أو البنيوية الظاهراتية، ترجمة عبد الجليل الأزدي، الطبعة الأولى 1999، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

نشاطات رومان ياكوبسون العلمية

لمحة تاريخية:

ولد رومان ياكوبسون في 1896.

ومنذ سنة 1914، وفي جامعة موسكو، تخصص رومان ياكوبسون في الدراسة اللسانية المقارنة وفي الفيلولوجيا السلافية. وقد تميزت سنوات شبابه بانحدار الواقعية وولادة الرمزية التي تقرر سمو القيم العقلية والجمالية. وقد تأثر، منذ فتوته، بالشعر الطلائعي وبالحركة المستقبلية التي كان يمثلها أصدقاؤه: مايكوفسكي MAIKOVSKI وكليبنكوف V.Khlebnikov. وفي سنة 1915 أسس مع بعض الطلبة حلقة موسكو اللسانية التي تضمنت في برامجها مشاريع البحث

في لغة المتكلمين وفي الفلكلور بموسكو وكذلك الأبحاث الخاصة بالجغرافية اللسانية الروسية. وقد ساهم رومان ياكوبسون في هذه الفترة في بلورة نظريات أدبية جديدة منحت الشكلانيين الروس سمعة حسنة. وقد كانت الابوجاز OPIAZ (جمعية دراسة اللغة الشعرية) تتعاون منذ تأسيسها سنة 1915 بشكل واسع مع حلقة موسكو.

في سنة 1920 التحق ببراغ BRAGUE، حيث عاش حتى سنة 1838 مشتغلاً على قضايا الوزن المقارن، وفي دراسة اللغات السلافية دراسة مقارنة. وقد صاغ مع صديقه تروبتسكوي N:TROUBETSKOI تصميماً أولياً لما أصبح يعرف بالفنولوجيا البنيوية. وقد نشر في سنة 1921 دراسة حول الشعر الروسي المعاصر، كانت تحليلاً قيماً لأثر كليبنكوف بخاصة. وقد مثل كتابه الخاص بالبيت التشيكي مقارناً بالبيت الروسي سنة 1923 أول محاولة لتطبيق المبادئ الفنلوجية على دراسة اللغة الشعرية. كما وضع عدداً من الفرضيات اللسانية ستصبح تمهيداً نظرياً مهماً خلال الأبحاث الأولى لحلقة براغ.

وقد كانت الحلقة اللسانية ببراغ التي تأسست سنة 1926 بمشاركة اللساني التشيكي فيلم ماتيوسVilem Mathesius (1882 ـ 1945) تجمع إضافة إلى التشيكيين جان موكاروفسكي وبوهسلاف هافرانك، ثلاثة روسيين من حلقة

موسكو: ترويتسكوي والانتولوجي بُكَتْيريف Bogatyrer وياكوبسون نفسه الذي سيصبح رئيساً لهذه الحلقة حتى سنة 1938. ومنذ الأعمال الأولى لحلقة براغ أكدت الأبحاث المتعلقة باللغة تعدداً متكافئاً انطلاقاً من علاقة مركزية: اللسانيات ومناهجها البنيوية الجديدة.

إن أبحاث حلقة براغ المنشورة في سنة 1929 الخاصة بالوظائف المتعددة للغة وعلاقاتها باللغة الأدبية والشعرية، ترجع بخاصة إلى ياكوبسون، وقد كانت موضوع جدالات مهمة في المؤتمر اللساني بلاهاي في سنة 1928. وقد سجلت هذه السنة توجه ياكوبسون الحاسم نحو المشاكل اللسانية العامة، رغم أنه بقي على علاقة مع الشكلانيين الروس مؤكداً شهاداته بخصوص مقالاته حول مايكوفسكي وبوشكين والشعراء التشيكيين كاريل جاروميير وكاريل هنيك ماشا. وقد برزت في دراسته حول نثر باسترناك مفاهيم المجاز والاستعارة التي ستتطور فيما بعد في مجال الشعرية وفي أبحاثه حول اكتساب واضطرابات اللغة.

خلال السنوات 1930 شارك ياكوبسون في تطوير دراسات البنيوية الأولى المؤسسة على فكرة الوظائف اللسانية الهرمية وعلى مفهوم التعارض بين العناصر الموسومة وغير الموسومة. كما حاول تطبيق الأفكار الخاصة بالنظام وبالبنية،

ليس فقط على اللسانيات السانكرونية، ولكن أيضاً على اللسانيات التاريخية.

لقد كان تحليل المعني، وبشكل خاص "المعاني العامة" لأصناف النحوية، جزءاً من المبادئ التي كانت تشغل رومان ياكوبسون منذ سنة 1930.

وفي سنة 1938 بعد الاحتلال الألماني لتشيكوسلوفاكيا، هاجر ياكوبسون إلى سكونديناڤيا، فاتجه في البداية إلى كوبنهاكن، حيث عقد علاقة مع حلقة كوبنهاكن اللسانية التي ولدت مؤخراً، وبعد ذلك إلى أوسلو وأوبسالا، حيث صاغ مقاله: "لغة الأطفال" و"الحبسة" Aphasie المنشور سنة 1941. خلال هذه الفترة اهتم بشكل خاص بالقضايا الفنلوجية العامة.

وقد اضطر مرغماً إلى الهجرة مرة أخرى إلى الولايات المتحدة في سنة 1941. ومنذ سنة 1957 درس اللسانيات العامة واللسانيات السلافية بمؤسسة X ماساشوسيت التكنولوجية Institut de Technologie du Massachusetts (بعد أن كان أستاذاً في مدرسة الدراسات العليا بنيويورك "1942 – 1946". وبجامعة كولومبيا "1949 – 1943" وجامعة هرفرد HARVARD "1957 – 1949"). إن وجود ياكوبسون بمؤسسة ماساشوست التكنولوجية (M – I –T) المكان الذي انطلقت منه انتقادات

النظريات البنيوية الأمريكية انطلاقاً من نقاط الاتصال بين المفاهيم البنيوية الأوروبية والتطورات الأولى للسانيات التوليدية.

وخلال هذه الفترة الأخيرة اشتغل ياكوبسون بصفة خاصة بتأسيس شكل للنظرية الفنولوجية. كما عمق أبحاثه الخاصة بلغة الأطفال واضطرابات الحبسة وآثارها في تطوير الدراسات المتعلقة بدلالة النحو. لقد استمرت أبحاثه في الحقل الملاقي نحو تحليل وإعادة بناء التقليد الروسي الملحمي، الشفوي والمكتوب، قصد تحديد الجذور الهندو – أوروبية لأشكال المنظومة السلافية. وترتبط دراساته المتأخرة التي تبحث عن العلاقات بين اللغة وأنظمة العلاقات الأخرى، وأشكال الاتصال بين اللسانيات والتخصصات الأخرى بمنظومة التواصل، الانطروبولوجية، مبحث الأعصاب، تاريخ اللسانيات الميتولوجية المقارنة الهندو أروبية، دور النحو في الشعر[1].

[1] هذه اللمحة التاريخية، عبارة عن ترجمة لمقال يتعرض لحياة رومان ياكوبسون العلمية، إنجاز مجموعة من اللسانيين، وهي منشورة في كتاب: "La Linguistique" Librairie La ' Rousse – 1977. pp – 70 - 75

اللسانيات ونظرية التواصل

يمثل اللقاء البارز الذي حصل بين اللسانيات ونظرية التواصل خطوة من الخطوات الرائدة التي اجتازها الباحثون في التخصصين معاً. فالقضايا الأساسية والفرعية في العلمين تجد تقاطعات محورية، تفتح آفاقاً واسعة لتبادل الخبرات والنتائج، وإعادة فحص أطراف عملية الاتصال، والميكانزمات الظاهرة والخفية لكل سيرورة تواصلية، مع الاحتفاظ بالمعالم الجوهرية لكل تخصص.

لقد أصبح موضوع التواصل في اللسانيات، وعند رومان ياكوبسون بشكل خاص، من المواضيع المحورية التي تتأسس عليها جُملة من الإشكالات النظرية والتطبيقية، مما جعله يفرد مبحثاً خاصاً لاكتشاف التقاطعات والتباينات بين نظرية

التواصل واللسانيات في كتابه: "محاولات في اللسانيات العامة".

وتكمن أهمية هذا البحث في طبيعته التركيبية وكثافة دلالة القضايا المطروحة من خلاله. فإذا كان العِلْمان يشتركان في وحدة موضوع البحث الذي يتمثل في تبادل الرسائل، فإن اللسانيات التي تهتم بقضايا البنيات اللغوية، وأشكال الرسائل المتنوعة، المستعملة في الكلام اليومي أو المعتمدة على خصائص جمالية في التعابير الفنية، تستمد من نظرية التواصل عدة وسائل وإجراءات لتفكيك أنواع الرسائل وتعيين خصوصيات كل نوع، كما تمد هذه الأخيرة بأدوات ناجعة لإشكالات مختلفة.

ويمثل "التواصل" الذي تستدعيه، بداهة، طبيعة اللغة من جهة، وأشكال الاتصال من جهة أخرى. قنطرة من خلالها يتم المرور من اللسانيات إلى الشعرية، فهذه الأخيرة تتأسس عضوياً على قضية "التواصل" التي يعيد رومان ياكوبسون فحصها وبناء أجزائها وتحديد وظائف اللغة المنبثقة عن كل جزء للبرهنة على مشروعية دراسة الآثار الفنية ــ خاصة اللفظية منها ــ اعتماداً على اللسانيات.

ولنقترب من هذا التصور العام سنحاول تفكيك الموضوع وفق الأسئلة الآتية:

كيف تأسست نظرية التواصل؟

ما هو موضوعها؟

ما هي أنواع التقاطعات بينها وبين اللسانيات؟

ما هي نماذج التواصل اللساني؟.

نظرية التواصل: النشأة والموضوع:

انطلقت الدراسات والبحوث المتخصصة في نظرية التواصل في الولايات المتحدة في الأربعينات من القرن العشرين، وقد ساهمت أبحاث متنوعة، وفي اختصاصات محددة ــ الفيزياء والرياضيات ــ في بلورة نظرية حول الأنظمة التواصلية، (لقد سُبِقَتْ الأبحاث النظرية حول الأنظمة التواصلية بدراسات بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر في الفيزياء وفي الرياضيات Andreiwich Markov, Lwdwingbohzan Ralf wichon Hartley حول مفهوم "احتمالية الحدث Beobabilite d' une evenement" وإمكانية قياس هذه الاحتمالية)[1]

وبعد المحاولات التمهيدية تمكنت نظرية التواصل من تحديد موضوعها وتأسيس منظوراتها الجديدة. وقد شَكَّلَ التواصل

[1]Genevieve chauveau " La theorie de la communication". La Linguistique p = 95

اللساني فرعاً من الفروع المدروسة في نظرية التواصل. وتمت في هذا الإطار عمليات تحديد دقيقة لمفاهيم عدة وحدود كثيرة. ومن هنا تبلورت الأعمال المهمة حديثاً بفضل اشتراك علماء الرياضيات ومهندسي التواصل. حيث تم تحديد موضوع نظرية التواصل باعتبارها بحثا تأملياً في: "المميزات الخاصة في كل نظام من العلامات مستعمل بين "كائنين (حيين أم تقنيين) يهدف إلى غايات تواصلية"[1].

ويقتضي هذا التعريف أطرافاً مكونة تؤثر في كل سيرورة تواصلية، تبدأ من السنن code المشترك بين المتكلمين، إلى قناة الاتصال وإبلاغ الرسالة لعناصرها السياقية والمضمونية، وقطبي التواصل المحوريين: المرسل Emetteur والمتلقي Recepteur. إن كل طرف من هذه الأطراف يأخذ تعريفه انطلاقاً من نمط التواصل، أي من طبيعته وشكله اللغوي أو غير اللغوي.

ـ فالسنن في التواصل اللغوي مثلاً يستند على عدد من الفونيمات والمورفيمات في لغة طبيعية، حيث يمثلان قواعد تأليف خاصة بنظام محدد، أما في التواصل غير اللغوي فإنه يمثل: مجموعة الاصطلاحات المنضبطة والمماثلة للعلامات الضوئية والكهربائية... وتختلف أنواع السنن حسب قواعد

(1) المرجع السابق: ص 95.

التأليف وعدد العلامات أو حسب الممارسين الفعليين لهذا السنن أو ذاك. وهكذا يمكن لسنن أن: "يشتمل على عدد محدود من العلامات وقواعد التأليف أو على عدد مرتفع. كما يمكن أن يكون مشتركاً بين عدد من المرسلين والمتلقين، أو يكون محصوراً في عدد ضئيل (اثنين على الأقل).

ويتمظهر السنن على شكل رسالة تنقل أخباراً بين المتكلمين. ذلك أن عملية الإخبار تستلزم إعطاء شكل للرسالة بواسطة السنن الذي يؤمن وضوح الرسالة وتحقق الأخبار. فـ: "انتقال الأخبار يتم بواسطة رسالة أخذت شكلاً ما، أي سننت Codé، فالشرط الأول إذن لقيام التواصل هو تسنين Codage الأخبار، أي تحويل الرسالة المدركة والمحسوسة إلى نظام من العلامات أو إلى سنن، من خصائصه الجوهرية كونه متفقاً عليه من الناحية التنظيمية والتصنيفية".

– أما القناة Canal فتمثل محور عملية التواصل، لأنها مكان تمظهر السنن في شكل رسالة، ومركز الاتصال الفيزيقي بين المتكلمين. وتختلف طبيعة القناة باختلاف نوعية التواصل أيضاً، فالهواء يمثل قناة التواصل بالنسبة للتواصل اللفظي، والأسلاك الكهربائية بالنسبة للتلغراف والتلفون.....

– إن المرسل هو مصدر تكون وتحقق الرسالة، ويمكن تبعاً لنوع الرسائل تعريفه. فهو العقل الإنساني للغة المنطوقة

والمكتوبة، والكلام الإنساني بالنسبة للتلفون أو الإذاعة. و: "تتضمن آليات التسنين Codage الرسالة والآلة المرسلة (أعضاء الكلام بالنسبة للكلام، المكروفون والمرسل الإذاعي بالنسبة للبث الإذاعي). وتتم عملية التسنين encodage على مستوى مصدر – المرسل – أي اختيار عدد من العلامات المنتمية للسنن، تسمح للمرسل بإصدار الرسالة"[1]

ويمكن أن ندرج تحت مصطلح "المتلقي" كل آليات تلقي الرسالة، وكذا المرسل إليه الذي يتلقى الرسالة، و: "تتم صيرورة فك السنن على مستوى المرسل إليه – المتلقي – recepteur - destinateur بواسطة البحث في الذاكرة عن العناصر المنتمية للسنن المختار لتسجيل الرسالة[2].

وهناك شرطان ضروريان في كل وضعية تواصلية، يتمثل الأول في الأفراد المشاركين في التواصل، أما الثاني فيتمثل في العلاقات الزمنية والفضائية، واعتباراً لهذين الشرطين يمكن أن نسجل مع Genevieve chauveau التمفصلات الآتية:

1 – المشاركين في التواصل ويتمثل دورهم في أنا (ego) مركز لتلفظ.

---

(1) Genevieve chauveau: La theorie de la communication p – 97

(2) المرجع السابق: ص 97.

2 ــ الأبعاد الفضائية ــ الزمنية ــ للملفوظ أو السياق الموضوعي....[1]

ويتفرع عن الشرط الثاني تبعاً لطبيعة العلاقة ما يلي: العلاقة بين زمن التلفظ وزمن الملفوظ ــ العلاقة بين الذات وموضوع الملفوظ ــ العلاقات السوسيولوجية والتاريخية بين المتكلمين.

وتلخص الصياغة الآتية هذه المحاور:

"أنا، هنا، الآن"[2].

ويمكن اعتماداً على الخطاطة التي حددها جونوفييف شوفو توضيح مختلف آليات وعناصر كل عملية تواصلية[3]:

البرنامج المصدر

السنني

البث المرسل

القناة

---

[1] Dictionnaire de Linguistique – Larousse p = 97

[2] المرجع السابق ص 97.

[3] Genevieve chauveau = La théorie de la communication

المتلقـــي مفكك السنن

المرسل إليه

تقاطعات اللسانيات ونظرية التواصل:

هناك عدة أسس يمكن أن تدعم تعاون علمـــي اللســـانيات ونظرية التواصل على مستوى موضوع البحث، وما يتفـــرع عنه من إشكالات تواجه العلمين معاً. وقد مثلت اللحظة الحديثة للأبحاث اللسانية والتواصلية نقاط اتصال وانفصال بارزة فـــي تاريخ العلمين الحديث، خاصة من جهة طريقة مقاربة اللغـــة التي تميز النظرية الرياضية للتواصل.

ويتناول رومان ياكوبسون في البداية قضية "تيـــار اللغـــة المستمر فيزيقياً" مؤكداً أنها من القضايا المعقدة فـــي نظريـــة التواصل. وقد تمت في اللسانيات عكس ذلك عمليـــات تحليـــل لهذه القضية من خلال الخطاب الشفهي: "في عينة محدودة من وحدات الأخبار العناصرية élementaires. وهذه الوحـــدات المنفصلة والمتلاحمة المسماة عناصـــر ميـــزة ضُـــمّت فـــي مجموعات متزامنة تسمى فونيمات، تتسلسل بـــدورها لتشـــكل

المتواليات Sequences، وهكذا فإن اللغة بنية محببة ظاهرياً وقابلة للوصف الكمي"[1].

وهذا يعني أن اللسانيات قد توصلت إلى نتائج جيدة يمكن لنظرية التواصل أن تستفيد منها.

وبخصوص الهدف من العلمين فإن هناك مماثلة يبرزها رومان ياكوبسون اعتماداً على تحديد مكاي D.M.Makay للهدف من نظرية التواصل وطبيعة البحث في الفونولوجيا عن الثوابت العلائقية invariant relationnel فمكاي يحدد الهدف من نظرية التواصل بأنه يتمثل في: "عزل العناصر المجردة من التمثيلات التي يمكن أن تبقى ثابتة داخل صياغات جديدة"[2].

وفي هذا الإطار، يمكن أن تستفيد اللسانيات، السانكرونية منها والدياكرونية، اعتماداً على تمييز مهندسي التواصل بين الإخبار البنيوي والوزني Metrique؛ كما أن مبدأ التفرع الثنائي dichotomie قد عزز في نظرية التواصل باستعمال علامات ثنائية كوحدة قياس.

ومن المفاهيم الأساسية المستعملة في اللسانيات ونظرية التواصل مفهوم الحشو redondance الذي اتخذ دلالات جديدة

---

[1] Romam Jakobson = Essais de Liguistique General, les editions de minuit p 88

[2] المرجع السابق ص 88

واكتسى حمولة إجرائية كشفت عن عناصر مكونة جوهرية؛ الشيء الذي استلزم ضرورة تحديد دقيقة للعناصر المميزة والحشوية باعتبار فعاليتها؛ كما أوجب ضرورة التمييز بينهما. وهكذا فـ "إن مفهوم الحشو المأخوذ من نظرية التواصل والمستعمل في فرع من اللسانيات هو البلاغة، قد أخذ مكاناً مهماً في تطور هذه النظرية"[1].

يُحَدِّدُ رومان ياكوبسون كيفيات معالجة مفهوم الحشو فيبدأ بضرورة التمييز الدقيق بين مختلف أصناف الحشو. وتنطبق هذه الإشارة على نظرية التواصل وعلى اللسانيات. فهذا المفهوم ـ الحشو ـ يأخذ تعريفه من جهة الوسائل الحشوية Pleonastique باعتبار تعارضها مع العناصر الواضحة بامتياز، أو من جهة ما هو واضح في تعارضه مع الحذف L'ellipse. ويفيد مفهوم الحشو، كما يؤكد ذلك ياكوبسون، في توضيح "العلاقات بين الأصناف الأساسية للكمية الصوتية للعناصر التمييزية وعناصر الحشو"[2].

وهكذا فإن الحكم القيمي على العناصر التمييزية وعناصر الحشو هو عملية اعتباطية تهدمها فرضيات ومسلمات لسانية. ومن هذا المنطلق ينتقد ياكوبسون الرأي القائل بعدم صحة

---

(1) المرجع السابق ص 89

(2) المرجع السابق ص 89

التمييز على المستوى الفنولوجي بين العناصر التمييزية والحشوية قائلاً: "وإن الحكم المسبق، الذي يعتبر العناصر الحشوية غير ضرورية والعناصر التمييزية باعتبارها وحدها الضرورية، في طريق الزوال من اللسانيات. وقد ساعدت نظرية التواصل، مرة أخرى، في معالجتها لاحتمالات التحويل اللساني خاصة على إعلاء المقاربة ورؤية العناصر التمييزية والحشوية، باعتبارهما ضروريين وغير ضروريين على التوالي"[1].

إن نظريتي التواصل واللسانيات تتقاطعان أيضاً في أكثر من مستوى. ويمثل مفهوم: "الإمكانية المرتقبة" أحد المحطات الأساسية في حلقات الوصل بين العلمين. فافتراض مهندس التواصل اشتراك المتكلمين في امتلاك نظام تصنيف واحد، يماثل الافتراض اللساني المتعلق بتبادل الرسائل في اللسانيات ابتداء من فرديناند دوسوسير. وتنطوي ملاحظة رومان ياكوبسون الحكيمة المتعلقة بوقوف اللسانيات في دراستها للتواصل اللفظي عند المكونات النحوية الفونولوجية، على دلالات عميقة، من خلالها ينتقد تصور نظرية التواصل للسنن ونمطية إنتاج الرسائل. فمجموع التمثيلات المقننة تتجاوز

[1] نفس المرجع السابق ص 90

تصور الرموز اللفظية، ويمكن تحديدها كــ "فعاليــة إنتــاج التمثيلات". ومن ثم يظهر تعريف مهندس التواصــل للسـنن قاصراً إذ: "لا يمكــن أن يحــد بالــذي يســميه المهندســون "المضمون المعرفي الخاص للخطاب" وبالفعل فــإن الطبقــات الأسلوبية للرموز اللفظية مثلها مثــل التنوعــات المفترضــة "الحرة" في تكونها، تشبه قواعد التأليف "المرتقبــة والمعــدة" بواسطة السنن"[1].

وبالقياس إلى المفهوم الدقيق الذي يعطيه رومان ياكوبسون لعمليات الحذف التي تتم في المستوى النحوي والفونولــوجي، وبالنظر إلى مسنن الرسالة ومفككها اعتمــاداً علــى تجميــع العناصر في مجموعات متزامنة أو تعاقبية. ويحتــوي الســنن الكلي على سنن دنيــا Sous = code. وتســتلزم عمليــات التحويل والانتقال من سنن مركزي على ســنن دنيــا دراســة متمعنة من اللسانيين ومهندسي التواصــل، ذلــك: "أن الســنن التحويلي في اللغة وكل تموجات السنن الدنيا إلى ســنن دنيــا أخرى، وكل التحولات التي تتلقاها باستمرار تستدعي وصفها بشكل منظم ومتصل من طرف اللسانيات ونظرية التواصــل. إن نظرة متفهمة للسانكرونية الدينامية للغة تفــرض تنســيقات

[1] المرجع السابق ص 91

فضاء زمنية يجب أن تعوض النموذج التقليـدي للأوصـاف الاعتباطية التي تُحَدُّ بالمظهر الثابت"[1].

ويمكن أن نلاحظ مع رومان ياكوبسون فيما يتعلق بقضـية المعنى حركة تهدف إلى إعادة مشروعية الدلائلية بعد عمليات الإقصاء التي تعرضت لها في بعض الفترات الزمنية، خاصة في مجال دراسة العلاقة بين الدلالة العامة والدلالة السـياقية. وما دامت الأصناف النحوية المورفولوجية تتأسس على سُـلّم من التعارضات الثنائية، فإن قياس كمية الإخبار النحوي ينبغي أن تقوم به نظرية التواصل كما يلح ياكوبسون على ذلك، كما أن مقابلة: "كمية الإخبار النحوي المستمر بالقوة فـي ميـزان صرف لغة معطاة (دراسة السنن الإحصائية) مع كمية الإخبار المماثل لأفعال الكلام في التواردات الحقيقية لمختلف الأشـكال النحوية داخل متن محدد من الرسائل"[2].

إن القضايا التي تطرحها الدلالات النحوية والمعجمية بتعبير رومان ياكوبسون لا ينبغي أن تجعلنا نقيم: تصوراً رديئاً عن المفاهيم الشعبية الخاصة بالانتظام وبالانزياح Déviation"[3].

---

[1] المرجع السابق ص 92

[2] المرجع السابق ص 96

[3] المرجع السابق ص 97

ويمكن تبعاً لهذا نقد تصورات كل من كريلوويتز Krylowiz وتشومسكي chomski وبلوم فيلد Bloomfield بخصوص الدلالات النحوية والمعجمية، لأن:

"الاختلافات المجازية لا تمثل انزياحات، وإنما هي طرق منتظمة ومنبثقة عن بعض التنوعات الأسلوبية باعتبارها سنناً دنيا منبثقة عن السنن العام"[1].

وتجعلنا هذه الإشارات الموجزة نكتشف مع رومان ياكوبسون خصوبة اشتراك علمي اللسانيات والتواصل قصد تجاوز العقبات في المجالين معاً. ونسجل بخصوص الشعرية مع ياكوبسون أيضاً هذا الابتهاج الذي تبعثه لقاءات اللسانيات ودراسة اللغة الشعرية والتحليل الرياضي للسيرورات العرضية، فالمدرسة الروسية الخاصة بالوزن كما يقرر ذلك: "تدين في جزء كبير من انتشارها الدولي، منذ أربعين سنة، إلى باحثين من أمثال توماشفسكي B Tomacheveski المتضلع في الرياضيات والفنولوجية في آن واحد، والذي تمكن من استخدام سلاسل ماركوف Markov في دراسة إحصائية للبيت الشعري[2].

---

(1) نفس المرجع ص 97

(2) المرجع السابق ص 98.

نماذج التواصل اللساني:

من خلال عرض أشكال الاتصال والانفصال بين اللسانيات ونظرية التواصل يتبين أن عملية إبلاغ الرسائل ـ خاصة اللفظية منها ـ تحتل موقعاً أساسياً في العلمين. وقد توصلت اللسانيات إلى صياغة نماذج تجسد عناصر التواصل اللساني ومختلف آليات الإبلاغ والتلقي. ويعتبر نموذج رائد اللسانيات الحديثة فرديناند دوسوسير F. De saussure من أهم النماذج التي صيغت في هذا الإطار، إضافة إلى نموذج رومان ياكوبسون الذي يكتشف من خلاله مختلف مستويات التعبير اللغوي، وما يتفرع عن هذه المستويات من وظائف.

1 ـ نموذج فرديناند دوسوسير:

يتأسس هذا النموذج على التمييز الواضح بين اللغة والكلام. فإذا كانت اللغة تمثل مخزوناً جماعياً مشتركاً بين أفراد الجماعة اللسانية فإن الكلام هو تحقيق وإنجاز فعلي لهذا المخزون في مقامات كلامية تحكمها شروط خاصة. إن هذا التمييز بتعبير سوسير يجعلنا: نفرق في نفس الوقت بين: أ ـ

ما هو اجتماعي وما هو فردي. ب ــ ما هو جوهري إضافي أو على الأقل خاضع للصدفة[1].

إن عملية تمثيل شكل الاتصال اللغوي تــتم فــي مســتوى الكلام، أي على صعيد الفعل الفردي، وتستلزم طريقة تبــادل الرسائل اللفظية (شخصين على الأقل). ويجسد هذه الآلية تيار الاتصال الذي يأخذ نقطة انطلاقه، كما يشير سوسير، من عقل (الشخص أ) وتمثل هذه العملية مفاهيم مشتركة مع العلامــات اللسانية أو الصور السمعية، وهذه ظاهرة فيزيولوجية بواسطتها تنتشر الموجات الصوتية من فم (الشخص أ) إلى أذن (الشخص ب). ويقوم، هذا الأخير، بإحالة الصورة السمعية إلى عقلــه. وبنفس الطريقة تتم عمليتا إصدار التلقي عندما يصبح المتلقــي مصدراً والمصدر متلقياً، ويمثل سوسير هــذه العمليــة فــي الخطاطة الآتية[2]:

ويمكن أن نستخلص من هذا النموذج الطبيعة المزدوجة في كل فعل كلامي، بل والتراكب بين هاتين الطبيعتــين، الأولــى أيضاً على مستوى العناصر الفاعلة فــي عمليــات الــتلفظ أو الاستماع. وهكذا يمكن أن نجزئ تيار الاتصــال كمــا يقــول فردناند دوسوسير أيضاً إلى:

---

[1]Ferdiannd de Saussure = Cours de Linguistique General edition critique – 19 / 2 p – 30

[2] نفس المرجع: ص 28.

أ ـ جزء خارجي (ارتجاج الأصوات الصادرة من الفم إلى الأذن)، وجزء داخلي يتضمن الباقي.

ب ـ جزء نفسي وآخر غير نفسي، ويتضمن الأخير الأفعال الفيزيولوجية التي تعتبر الأعضاء مركزها، وكذا الأفعال الفيزيقية الخارجة عن الفرد.

ج ـ جزء فاعل وجزء منفعل، ويقصد بالجزء الفاعل كل ما ينطلق من مركز تجميع أحد الذوات إلى أذن الذات الأخرى. والجزء المنفعل كل ما ينطلق من أذن هذا الأخير إلى مركز التجميع[1].

إن افتراض فرديناند دوسوسير القائم على "اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول تجعل المفاهيم والصور السمعية تختلف عن مقولة الأسماء والأشياء. وقد تعرض هذا الافتراض لانتقادات عدة سنقف مع رومان ياكوبسون عند أبرز ملامحها.

2 ـ نموذج رومان ياكوبسون:

يقترب نموذج التواصل الذي يصوغه رومان ياكوبسون من نموذج التواصل المصوغ في نظرية التواصل، والمكونات

[1] المرجع السابق ص 29

السنة التي لا يمكن لأي تواصل الاستغناء عنها، تتزامن لإقامة التواصل والمحافظة عليه.

فإضافة إلى المرسل والمرسل إليه يضيف ياكوبسون مفهوم السياق contexte. ولا ينبغي لمن يصف التواصل أن: "يخلط بين تبادل الرسائل اللفظية واستخلاص الأخبار من العالم الفزيقي"[1]. إن السياق كما يحدده ياكوبسون هو المضمون الذي يتمثله المرسل إليه، وهذا المضمون يكون إما لفظياً أو قابلاً لأن يصير كذلك. ويستلزم التواصل أيضاً اتصالاً Contact أي قناة فيزيقية، وربطاً نفسياً بين أطراف التواصل. بهذا المعنى نلاحظ: "أن الأبحاث التي جربت بناء نموذج للغة دون أية علاقة بالمتكلم والمستمع تجمد السنن المفكك للتواصل وتقترب من اختزال اللغة إلى وهم مدرسي"[2].

ويمثل السنن code أحد المكونات الجوهرية في كل سيرورة تواصلية لفظية: ويمكن أن نميز هنا بين التسنين encodage وفك التسنين décodage باعتبارهما عمليتان مختلفتين تضاف غليهما عملية أخرى هي إعادة لتسنين recodage. فسيرورة التسنين: "تنطلق بشكل عام من المعنى إلى الصوت، ومن المستوى النحوي والمعجمي إلى المستوى

---

(1) R.J. Essais de linguistique Generale

(2) نفس المرجع ص 95

الفنولوجي، بينما يمثل فك السنن اتجاهاً معاكساً ـ أي أنه ينطلق من الصوت إلى المعنى ومن العناصر إلى الرموز»[1].

ويشتمل السنن العام المركزي على سنن ـ دنيا ـ تعطي لكل رسالة خاصيات مميزة. إن هذه المكونات الأساسية يمثلها رومان ياكوبسون في الخطاطة الآتية[2]:

سياق

مرسل   رسالة   مرسل إليه

اتصال

سنن

ويشير هذا النموذج إلى كل مكونات ومراحل تحقق التواصل، ونظراً لطبيعته الشاملة من جهة وتمثيليته الواقعية من جهة أخرى، فإنه ينفتح على كل التنوعات الممكنة للغة. كما أن فحص كل مكون من هذه المكونات يفتح آفاقاً لاكتشافات جديدة. ويعتمد رومان ياكوبسون على هذا النموذج ليكتشف وظائف اللغة المختلفة. وبهذا يجسد عملية وصل خلاقة بين اللسانيات ونظرية التواصل، يؤسس من خلالها الشعرية كعلم متضمن في اللسانيات باعتبارها دراسة البنيات اللغوية عامة.

---

(1) المرجع السابق ص 93

(2) نفس المرجع ص 214

الشعريـة واللسانيـات

علاقة الشعرية باللسانية:

إن الشعرية من العلوم التي عرفت تنوعات عميقة عبر مراحل تاريخية واتجاهات فنية مختلفة. ويمكن أن نميز في تاريخ الشعرية بين لحظة قديمة يمثلها أرسطو بكتابه "الشعرية" الذي يعالج فيه أنماط الخطاب وصولاً إلى الشعريات العربية والأوروبية الكلاسيكية. وإلى لحظة حديثة ترتبط بحركة الشكلانيين الروس وما أعقبها من توجهات عميقة في حقل الشعرية.

لقد مثلت أبحاث الشكلانيين الروس تثويراً في حقل الدراسة الأدبية سواء من ناحية المفاهيم أو التصورات أو من ناحية الأدوات والإجراءات التطبيقية. ومن هنا يحدد رومان ياكوبسون فرضية أساسية لموضوع علم الأدب بقوله إن:

"موضـــــوع علــم الأدب لــــيس الأدب، ولكـــن الأدبيــــة Littérarité"[1].

ومن خلال هذا التصور العميق ينتقد الطروحات النقدية التي تعتمد على معطيات خارجة عن النص الأدبي. كما يحدد منهج الدراسة الأدبية الحق كما يلي: "إذا أرادت" الدراسة الأدبية "أن تصبح علمية يجب أن تعــرف مفهــوم الإجـــراء Procédé باعتباره "شخصيتها" الوحيدة. وبعد هذا فإن القضية الأساســية تتعلق بالتطبيق والبرهنة على هذا الإجراء"[2].

وعلى هذا الأساس النظـــري يؤســس تعريفنـــا للشـــعرية باعتبارها علماً يهدف إلى تحليل العناصر التي تكـــوّن العمــل الفني. ويمثل التركيز على الخاصـــية اللفظيـــة للأثـــر أحـــد الاهتمامات الأولية في حقل "الشعرية" كما يحـــددها رومـــان ياكوبسون، ذلك: "أن موضوع الشعرية هو قبــل كــل شـــيء الإجابة عن السؤال التالي: ما الذي يجعل من رسالة لفظية أثراً فنياً؟ ...."[3] وبما أن تنوعات البناء اللغوي تعتبر طرفاً مـــن الأطراف المنبثقة عن البناء اللغوي الأولي (الأصـــلي) فـــإن

[1] R.J.Questions de poetiqui Collection poetique edition du seuil Paris 1973. p 15

[2] نفس المرجع ص 15.

[3] R.J Essais de linguisique General p = 210

انظر أيضاً "قضايا الشعرية"

دراسة القيم المهيمنة في الأثر اللفظي تستند أساساً إلى معطيات اللسانيات وعلم البنيات اللغوية الشامل، وهكذا فإن الشعرية كما يؤكد رومان ياكوبسون: "تهتم بقضايا البنية اللسانية، تماماً مثلما يهتم تحليل الرسم بالبنيات الرسمية، فإنه يمكن اعتبار الشعرية جزءاً لا يتجزأ من اللسانيات"[1]. ويترتب عن هذا التحديد ما يلي:

ـ اعتبار الشعرية فرعاً من فروع الدراسة اللسانية التي تهتم بتنوعات البنية اللغوية ـ خاصة التنوع الذي تهيمن فيه الوظيفة الشعرية ـ.

ـ التركيز على القيمة المستقلة للأثر الفني مع انفتاحها على الأنساق الدلالية الأخرى.

ـ اعتماد نظرة متفتحة لمجالات اشتغال اللسانيات.

إن فرضية رومان ياكوبسون الأساسية الخاصة بطبيعة الشعرية لا تختزل حدود هذا العلم في بنية لفظية مغلقة بل تلائم التنوعات الممكنة، ويمكن أن نلمح ذلك من خلال التأملات الدقيقة التي يعيد من خلالها فحص أجزاء الفرضية، فيؤكد أنه: "من البديهي ألا ينحصر العدد الكبير من الأدوات التي تدرسها الشعرية في فن اللغة"[2].

---

[1] نفس المرجع ص 210.

[2] R. J Essaie de Linguistique Generale p = 210

وفي هذه الحالة يشير إلى تجاوز الفنون المختلفة اللفظية منها وغير اللفظية: الرقص، الموسيقى، الرسم، ...إلخ.

إن رومان ياكوبسون يعيد بناء موضوع الشعرية اعتماداً على تصور لساني منفتح انطلاقاً من لحظة اللقاء بين اللسانيات ونظرية التواصل التي اكتشف تقاطعاتها ومشاكلها، والتي مكنته من صياغة نموذج تواصلي لفظي يضم المكونات الأساسية لكل فعل تواصلي، من خلال هذا النموذج اكتشف وظائف لغوية متنوعة، وبالتالي فتح آفاقاً واسعة للبحث اللساني قصد دراسة الأنماط والرسائل اللفظية المختلفة. وفي هذه اللحظة تتموضع الشعرية باعتبارها دراسة علمية منظمة للتنوع اللغوي المعتمد على الوظيفة الشعرية. كما أنها يمكن أن تتفتح لتدرس هذه الوظيفة خارج اللغة.

الوظائف اللغوية:

يؤسس رومان ياكوبسون اعتماداً على تصور واسع لمناطق اشتغال اللسانيات إطاراً معرفياً نظرياً وتطبيقياً يخترق الحدود التي تفصل مجالات فعالية اللغة من خلال تنوعات الرسائل اللفظية. فالفرضية المحورية التي ترتكز على أشكال ومكونات التواصل تجد دعماً علمياً من خلال نموذج التواصل اللفظي الذي صاغه.

ومن هذه النقطة يتحقق لقاء بين الشعرية واللسانيات عبر نظرية التواصل في فرعها اللفظي انطلاقاً من قضية الوظائف اللغوية التي تتفرع عن مكونات عملية التواصل اللغوي.

ويعتبر مفهوم المهيمنة La Dominante الذي صيغ في المرحلة الثالثة من مراحل البحث الشكلاني كما يؤكد رومان ياكوبسون نفسه، "من المفاهيم الأساسية الأفضل تبلوراً، والأكثر إنتاجاً في النظرية الشكلية الروسية"[1].

وقد تم تحديد المهيمنة باعتبارها: عنصر "البؤرة" في أثر فني ما: إنها تهيمن، تحدد وتحول العناصر الأخرى، إنها تؤمن التحام البنية[2]. وتبعاً لذلك فإن الرسائل اللفظية تتنوع وفق الوظيفة اللغوية التي تهيمن على الوظائف الأخرى في رسالة ما فوق هرمية معينة. ويترتب عن هذا تحول وتغير في البنيات التركيبية والنحوية والصرفية والفونولوجية وأشكال الترابطات بين هذه البنيات، وكذلك أنماط التقبلات التي يمثلها التلقي.

ويميز رومان ياكوبسون ستَ وظائف لغوية تنبثق عن مكونات النموذج التواصلي هي:

- الوظيفة المعرفية Cognitive "الوضعية" أو "المرجعية".

---

(1) R.J. questions de poetique p – 145

(2) نفس المرجع ص: 145

تتفرع هذه الوظيفة عن الشكل التواصلي المتمثل في "السياق"، ويمكن أن تتحقق في اللغة اليومية واللغة العلمية، لأن الرسائل في هذه الحالة تعتمد على المواضعة اللغوية المشتركة بين أفراد الجماعة اللسانية، كما أن الغرض من التواصل يتمثل في الإبلاغ ذي الطبيعة النفعية. وما دامت الرسائل اللفظية لا تتنوع بالاقتصار على وظيفة بعينها، بل تتنوع تبعاً لهرمية الوظائف، فإن وظائف أخرى تتواجد مع هذه الوظيفة المهيمنة في هذه الرسائل.

* الوظيفة التعبيرية Expressive "الانفعالية"

وتتمثل في الرسائل التي تركز على الحمولة الانفعالية والوجدانية. ومن ثم فإنها ترتبط بالمرسل، أي تقدم انطباعه وانفعاله تجاه شيء ما. وترتبط هذه الوظيفة ببنية تعبيرية خاصة على مستوى النحو والصوت والمعجم. ويترتب عن هذا تباين بين ظواهر لسانية متنوعة. فعلى المستوى الصوتي مثلاً ترقى الظواهر الفيزيولوجية والعناصر التمييزية إلى مرتبة العنصر الاختلافي الذي يعبر عن الانفعال. وهكذا فإن الاختلاف، كما يذكر ياكوبسون، | si | و |:si |: اختلاف من طبيعة انفعالية في اللغة التشيكية، ينبغي تمييزه عن الاختلافات الأخرى ــ الفونيمية مثلاً ــ إن لهذه الوظيفة علاقة بأشكال وأنماط الإنشاد التي تتحقق بها العبارة.

* الوظيفة الإفهامية Conative

تكتسي نوعية الإبلاغ الموجه للمستمع صبغة الأداة التمييزية التي تطبع الرسائل بدلالات خاصة، وتسم تمظهراتها وبناها التركيبية والنحوية بخصيصات محددة، تعين تعالق مكونات الجملة والخطاب وأقسام الطبقات التعبيرية. فالوظيفة الإفهامية التي تتصل وتركز على المرسل إليه تحدد لنفسها إطاراً خاصاً للتبادلات العلائقية والتمفصلات اللسانية التي تتفاعل داخلها. فهي تجد تعبيرها النحوي: "الأكثر خلوصاً في النداء والأمر اللذين ينحرفان من وجهة نظر تركيبية وصرفية وحتى فونولوجية"[1].

* الوظيفة الانتباهية: Phatique

تهدف بعض الرسائل، كما يؤكد ياكوبسون، إلى إقامة التواصل والحفاظ عليه، وذلك باستخدام أشكال تعبيرية وسلسلات لفظية في لحظات معينة، قصد التأكد من استمرار التواصل وصحة تمثل المستمع مضمون الإبلاغ الحقيقي. وتأخذ هذه الوظيفة أبعاداً تشكيلية توظف لأغراض فنية توفرها الرغبة في إقامة التواصل، وتحقيق جمالية تتفاعل مع الحمولة المعرفية الخاصة.

* الوظيفة الميتا لسانية: Metalinguistique

---

(1) R.J. Essais de linguistique p – 216

يمكن أن نميز في هذه الوظيفة بين مجالين لغويين. المجال الأول وتمثله "اللغة الواصفة المعتمدة في الدراسة العلمية التي تتخذ من اللغة موضوعاً لها". أما المجال الثاني فيرتبط بعمليات الشرح التي تتخلل التواصل في الكلام اليومي، وهي ترمي إلى تحقيق درجة قصوى من التمثل لدى المستمع.

* الوظيفة الشعرية: Poetique

تركز الرسائل التي تهيمن فيها هذه الوظيفة على الرسالة ذاتها، وينبه رومان ياكوبسون إلى أن هذه الوظيفة لا تقتصر على الشعر، وإنما ينبغي دراستها في أشكال الرسائل اللفظية الأخرى، وكذلك غير اللفظية. وتعمل هذه الوظيفة على إبراز قيمة الكلمات والأصوات والتراكيب.... في ذاتها، مكسبة إياها قيمة مستقلة.

وبالإضافة إلى هذه الوظائف اللغوية نلاحظ أشكالاً تعبيرية أخرى ترتبط إما بالأجناس التعبيرية أو بالطبيعة الميتولوجية لأنماط عدة من الاتصالات.

إن هذه الوظائف هي محاولة تحليلية ونقدية اكتشف بواسطتها رومان ياكوبسون تنوعات لغوية غالباً ما تم الخلط بينها أو كانت مجهولة. فهذا الاكتشاف يفتح في وجه اللسانيات آفاقاً رحبة لدراسات متعمقة تميز خصوصيات الرسائل اللفظية

وتنوعاتها. وهكذا يتمم ياكوبسون خُطاطة مكونات التواصل بخُطاطة الوظائف الآتية[1]:

مرجعية

انفعالية شعرية إفهامية

انتباهية

ميتالسانية

إن كل وظيفة من هذه الوظائف تتمازج وتتسلسل وفق هرمية تحفظ لكل رسالة هيكلها وعنصرها الذاتي المميز. وبخصوص الوظيفة الشعرية فإن آليات وتمفصلات محددة تتحكم في بنيتها اللفظية قصد تحقيق ماهيتها. وهذه الآليات تفصل لغة الشعر والفنون الأخرى التي تهيمن فيها هذه الوظيفة عن اللغة اليومية وما يماثلها كلغة العلم. ويتأسس الحد الفاصل اعتماداً على عمليتي: الاختيار selection والتأليف combinaison التي سنعين طبيعتيهما اعتماداً على تصور سوسير في كتابه: "دروس في اللسانيات العامة" وبتصور رومان ياكوبسون لهاتين العمليتين وطبيعة التحولات في العلاقات المتبادلة بين هذين المحورين في اللغة الشعرية خاصة.

[1] R.J Essais de linguistique Generale p = 220

عمليتا الاختيار والتأليف:

تمثل هاتان العمليتان الخصيصة المزدوجة للغة في: "العلاقات والاختلافات بين الكلمات اللسانية تتم في دائرتين مختلفتين، كل دائرة تتولد عن ترتيب معين للقيم. ويمكن أن نفهم طبيعة هاتين الدائرتين انطلاقاً من التعارض بين هذين الترتيبين"[1].

يتعمد فرديناند دوسوسير في تحديده لهذين العاملين على ما هو داخل الخطاب وما هو خارج الخطاب. فالكلمات في الخطاب تتعارض تبعاً لتسلسلها، كما أن العلاقات تتأسس وفق الخصيصة الخطية للغة. ويمكن أن ندعو مثل هذه التأليفات تركيب syntagme. أما خارج الخطاب فإن الكلمات المشتركة تترابط فيما بينها في الذاكرة على شكل مجموعات تحكمها علاقات متنوعة. ويسمي فرديناند دوسوسير هذا النوع من التنسيقات بالعلاقات الارتباطية. ويمكن إدراك الاختلاف بين العمليتين:

---

[1] Ferdinande de saussure cours de linguistiuque Generle p = 170

التركيب والعلاقات الالاتباطية استناداً إلى قاعدة الحضـــور والغياب، فـــ "العلاقات التركيبية هيin praesentia أي إنهـــا تستند إلى كلمتين أو مجموعة كلمات متساوية وحاضرة فـــي سلسلة حقيقية. أما العلاقة الارتباطية فتضم عكس ذلك كلمات in absentia في سلسلة تذكرية مضمرة"[1].

إن مفهوم التركيب يمكن أن يطبق على عـــدة مســـتويات، فبالنسبة للكلمات هناك مستوى العلاقة التـــي تجمـــع أجـــزاء التركيب المختلفة، وهناك مستوى ثان يرتبط بعلاقة الأجـــزاء بالكل. كما يمكن لهذا المفهوم أن يتعدى الكلمات إلى مجمـــوع الكلمات والوحدات المعقدة وكل الأنواع الأخـــرى (الكلمـــات المركبة، المشتقة، أطراف الجملة، الجمل بكاملها)....[2]

إن للتركيب اتصالاً مباشراً بالعلاقات التركيبية كمـــا يلـــح فرديناند دوسوسير على ذلك. وعكس العلاقات التركيبية التـــي تستدعي تعاقب عدد محدد مـــن العناصـــر، فـــإن العلاقـــات الارتباطية العقلية تتميز بخاصيتين أساسيتين هما: الترتيب غير المحدد والعدد غير المنتهي، ويوضـــح فوديناند دوسوســـير الإشكال الذي تطرحه الخاصيتان بقوله: "غير أنه مـــن بـــين خاصيتي السلسلة الارتباطية، الترتيب غير المحدد والعدد غير

---

[1] F. cours de linguistique Generale p = 171

[2] نفس المرجع ص 172

المنتهي، فإن الأول فقط مبرهن عليه دائماً، أما الثاني فيمكن أن يزول"[1].

ويحاول رومان ياكوبسون أن يفحص تصور فرديناند دوسوسير للعلاقات التركيبية والعلاقات الارتباطية ــ وبعبارة أخرى لمظهري اللغة: التأليف والاختيار ــ فيقول:

لقد لاحظ فرديناند دوسوسير بوضوح الدور الأساسي الذي تلعبه هاتان العمليتان في اللغة، ومن بين تنويعتي التأليف (التزامن والتسلسل المنطقي) لم يعرف اللساني السويسري سوى الثانية، أي المتوالية الزمنية. رغم حدسه الخاص للفونيم كمجموعة من العناصر الاختلافية ــ لقد خضع المعلم السويسري للاعتقاد التقليدي المتمثل في الطبيعة الخطية للدال"[2].

إن اختيار وتأليف الوحدات اللسانية عمليتان متوازيتان، تمارسان في اللغة فعاليات متعددة، وفي مستويات متنوعة ومتداخلة. سواء على الصعيد الفونولوجي أو المعجمي أو التركيبي. ويمكن أن نميز أربعة أنماط خاصة بعمليتي الاختيار والتأليف في الفعل الكلامي:

(1) نفس المرجع ص 174

(2) R. J Essais de linguistique General p = 48

1 ـ النمط الأول: اختيار وتأليف العناصر المميزة لتشكيل الفونيمات.

2 ـ النمط الثاني: اختيار وتأليف الفونيمات لتشكيل الكلمات.

3 ـ النمط الثالث: اختيار وتأليف الكلمات لتشكيل الجمل.

4 ـ النمط الرابع: اختيار وتأليف الجمل لتشكل الملفوظات.

وتختلف درجات حرية المتكلم في الاختيار والتأليف في كل نمط من هذه الأنماط الأربعة. فحرية المتكلم في النمط الأول منعدمة، وفي الثاني محصورة، وفي الثالث ضعيفة. أما في النمط الرابع فدرجة حرية المتكلم أقوى وذلك راجع لضعف إلزامية القواعد، كما يؤكد رومان ياكوبسون ذلك بقوله: "وتتوقف، أخيراً، في تأليف الجمل إلى ملفوظات، حركة القواعد الإجبارية للتركيب، وتتنامى جوهرياً ـ بالخصوص ـ حرية المتكلم"[1].

إن درجات حرية المتكلم في اختيار وتأليف الوحدات اللسانية تفسر بطبيعة اللغة ذاتها، فالجوهر التواصلي يستدعي امتلاكاً جماعياً للغة وإنجازات فردية، وبفضل هذه الخاصية

(1) المرجع السابق ص 47

المزدوجة تتكيف وتتميز تنوعات اللغة. وعلى هذا الأساس، يصرح رومان ياكوبسون بأن: "مهندس الاتصالات يقترب من جوهر فعل الكلام عندما يؤكد بأنه في التبدل الأمثل للأخبار، يكون في متناول الذات المتكلمة والمستمع، تقريباً، نفس مذكرة التنفيذ الجاهزة: يختار مرسل الرسالة اللفظية واحدة من بين الإمكانات المرتقبة والمعدة سلفاً، وهكذا فإن فعل الكلام يستلزم استعمالاً لسنن مشترك بالنسبة للمتكلم كي يكون فعالاً"[1].

إن خاصية اللغة الجماعية تحفظ سيرورة التواصل بين المرسل والمرسل إليه، كما تضع حدوداً لعمليتي الاختيار والتأليف التي يقوم بها المتحدث والمستمع، سواء في السلسلة المنطوقة أو غير المنطوقة. ويمكن أن نلاحظ ظاهرة أخرى من شأنها تقليص حرية المتكلم في اختيار وتأليف الوحدات اللسانية تتمثل في وجود بعض التعابير المنتمية للغة، وأشار إليها فرديناند دوسوسير، مبرزاً أنه لا يمكن تغييرها لأنها قد وجدت بفعل التقليد[2].

أما رومان ياكوبسون فيسمي هذه التعابير بـ "الكلمات ـ الجمل phrase mots . إن دلالة هذه التعابير لا تستنتج من عناصرها المكونة، وإنما تكتشف بفعل العادة والاكتساب وذلك:

---

(1) نفس المرجع ص 46

(2) F. Cours de linguistique General p – 174

"لأن هذه الأصناف من الكلمات التي تخضع لهذه العلاقة، تأخذ كلمات واحدة"[1].

وتضاف إلى مثل هذه التعابير مجموعة من الملفوظات النمطية stéreotypés تعمل كلها على تقليص درجة حرية المتكلم في اختيار وتأليف الوحدات اللسانية. ويمكن أن نلمح على الصعيد الفونولوجي المحايث للطبيعة الخطية للدال تمييزات على مستوى التأليف والاختيار، بل يمكن، كذلك، الوقوف عند انحصار حرية المتكلم في اختيار وتأليف العناصر المميزة: "لأن السنن يفرض تحديدات للفونيم | k | مع الفونيمات اللاحقة و / أو السابقة. وليس مسموحاً إلا بقسم من المتواليات الفونيمية المستعملة في المخزون اللفظي للغة المعطاة، رغم كون بعض التأليفات ممكنة نظرياً... "[2]. فهذه الخاصية تنزع عن المتكلم صفة خلق الكلمات، غير أن درجات تقليص الحرية تنحصر إنْ نحن انتقلنا من الكلمة إلى الجملة أو من الجملة إلى الملفوظ.

وترتكز عملية التأليف والاختيار على قاعدتين أساسيتين: القاعدة الأولى تتمثل في السنن، أما الثانية فيمثلها السياق. إن

---

(1) R. J Essais de linguistique Generale p = 46

(2) المرجع السابق ص 47

الوحدات المتعاقبة في السلسلة الكلامية في محور التأليف تتلاحم وتتشابك فيما بينها وفق علاقة المجاورة contiguité.

ويمكن تبعاً لذلك معرفة مكونات العلامة وتأليفها مع غيرها، وسياقها الخاص أو سياقها مع غيرها من العلامات، ويؤكد رومان ياكوبسون هذه العلاقة الارتباطية التأليفية بقوله: "تتكون كل علامة من علامات مكَوِّنَة و / أو تظهر مُؤَلِّفَةً مع علامات أخرى، وهذا يدل على أن كل وحدة لسانية تصلح في السياق مع وحدات أكثر بساطة و / أو تجد سياقها الخاص في وحدة لسانية أكثر تعقيداً. ويترتب على هذا أن كل تجميع حقيقي للوحدات اللسانية تربطها وحدة عليا: التأليف والتلاحم هما وجهان لنفس العملة[1].

أما الاختيار، سواء على المستوى الفونولوجي أو المعجمي أو التركيبي، فيماثل العملية الإبدالية. وذلك لأن انتقاء كلمة من مجموع كلمات مشتركة يفترض إمكان وضع كلمة مكان أخرى، لأنها تشترك معها في خاصية معينة. فالفارق بين عمليتي التأليف: المقابل للتلاحم، والاختيار المقابل للإبدال، يمكن أن يتعلق بمكوني كل عملية تواصلية (الرسالة ــ السنن)، وذلك حسب نمط تعلق الوحدات اللسانية بهذا المكون أو بذاك أو بهما معاً، فإذا كانت الوحدات اللسانية الحاضرة in

---

(1) نفس المرجع ص 48

praesentia — على حد تعبير فيرديناند دوسوسير — ترتبط وتتعالق وفق مكوني العملية التواصلية (السنن والرسالة) فإن الوحدات اللسانية الغائبة in absentia ، بتعبير سوسير أيضاً، ترتبط وتتعالق وفق مكون واحد من مكونات العملية الواصلية: أي ترتبط بالسنن وليس بالرسالة. وبعبارة أخرى فإن الاختيار والإبدال substitution يرتبطان بالماهيات المقترنة les entité associées في السنن بصورة تعالقية، وليس في الرسالة المعطاة، بينما ترتبط الماهيات في حالة التأليف بالسنن وليس بالرسالة أو بالرسالة حقيقة..."[1] ووفق طبيعة مكان اشتغال الوحدات اللسانية ينهض كل من محوري الاختيار والتأليف بوظيفتين ومختلفتين، فـ : "المرسل يستطيع أن يلمح في الملفوظ المعطى تقسيماً للأجزاء المكونة (الجمل، الكلمات، الفونيمات، إلخ) المختارة من المخزون من بين كل الأجزاء المكونة الممكنة. إن لمكونات السياق وضع المجاورة un statut de contiguité بينما ترتبط العلامات فيما بينها في مجموعة إبدالية بواسطة درجات مختلفة من المماثلة similarité التي تحفظ تعادل المترادفات في النواة المشتركة للطباق"[2].

---

[1] المرجع السابق ص 48

[2] المرجع السابق ص 48 — 49

إن السنن والسياق يسمان العلامة اللسانية بميسم يمكن تحديده بواسطة تحليل الارتباطات بين العاملين داخل العلامة. أما الارتباطات مع العلامات الأخرى فتُحَدَّدُ على مستوى التناوب alternance ومستوى التجاور juxtaposition.

ويحيل رومان ياكوبسون على شارل ساندرس بيرس charle sanderspcirce بخصوص طبيعة العلامة اللسانية ومستويات تحليلها الداخلية وعلاقاتها مع غيرها. فيقول: "يصلح مرجعان لتحليل العلامة، الأول يرتبط بالسنن أما الثاني فيرتبط بالسياق سواء كان مسنناً أو حراً. وتلحق العلامة في كل الحالات بمجموع علامات أخرى بواسطة علاقة التناوب في الحالة الأولى وبواسطة علاقة التجاور في الحالة الثانية. ويمكن تبديل وحدة دالة معطاة بمجموعة علامات أكثر وضوحاً تنتمي لنفس السنن، بفضلها تظهر الدلالة العامة. بينما يُحَدَّدُ معناها السياقي باندماجها مع العلامات الداخلية لنفس السنن"[1].

ويتبين من هذا تعلق الرسالة: "ضرورة بالسنن بواسطة علاقة داخلية وبالرسالة بواسطة علاقة خارجية"[2]. وإذا كانت عملية الاختيار والتأليف تتم بهذا الشكل في اللغة اليومية، فإن

---

(1) نفس المرجع ص 49

(2) نفس المرجع ص 49

الآثار اللفظية التي تهيمن فيها الوظيفة الشعرية، تغير آليات التبادلات والعلاقات بين مستويات عمليتي التأليف والاختيار نتيجة التركيز على استقلالية العناصر الشكلية. وهكذا فإن الوظيفة الشعرية، كما يؤكد رومان ياكوبسون: "تسقط مبدأ التماثل الناتج عن محور الاختيار على محور التأليف"[1]. وهذه العملية تطبع النسيج اللغوي في البناء الشعري بخصوصيات على جميع مستويات اللغة: التعبيرية والتركيبية والصوتية.. وكلها تتفاعل لتحقيق (استقلالية) الأثر اللفظي من خلال مكونات محددة تطبع اللغة الشعرية.

اللغة الشعرية:

لقد تبلورت نظرية اللغة الشعرية من خلال الاستراتيجيات النقدية الجديدة المؤسسة على معطيات التأملات الوصفية للنصوص الإبداعية. وقد استندت المدرسة الشكلانية الروسية في توجهها نحو اختراق البنية النصية على مبادئ المستقبلية الروسية التي ركزت على التحام الشكل والمحتوى. ويعتبر هذا المبدأ تثويرا في مجال الدراسات الأدبية. فبالتأكيد على أن المحتوى يتأثر ويتغير بواسطة التحويلات الممارسة على

---

(1) المرجع السابق ص 220

الشكل، يتم الانفتاح على القيم المكونة الذاتية للآثار. ومن هنا فـ : "إن خلقنا اللغوي يلقي أضواء جديدة على كل شــيء"[1]. وهكذا ندرك، على حد تعبير رومـان ياكوبسـون، الهـدف الشعري كما ندرك:

"أن المستقبليين الروس، هم بكل تحديد الذين أسسوا الشعر (الكلمة المستقلة somovitoe) ذات القيمة المستقلة"[2].

ويمكن وفق هذا التصور تعريف الشعر باعتباره ملفوظـاً يهدف إلى التعبير، أي إنه يستفيد من الإمكانات التي تتيحهـا اللغات المختلفة ــ الوجدانية خاصة.

ومن هذا المنظور يدرج رومان ياكوبسون مفهوم (الأدبية) التي ينبغي أن تركز عليها الدراسات الأدبية، عوض المفـاهيم الشائعة التي تختزل في مجـالات خارجـة عنـه: السياسـة، الفلسفة، الثقافة.... ويرتكز هذا المنظور الجديد علـى مفهـوم الإجراء procoedé كوسيلة من وسائل التحليل المطبقة علـى النص ومراقبة ملائمته للمعطيات النصية.

إن الطاقة التعبيرية في اللغة الشعرية تبرز سيطرة الشـكل على المادة، وذلك بتحقيق زواج بين الصوت والمعنـى عـن طريق المجاورة، كما يتم اختزال الترابط الآلي لصـالح عـدم

---

(1) R. J. questions de poetique p – 13

(2) نفس المرجع ص 13

الترابط قصد خلق التأليفات الجديدة. وتتفرع عن هذه الميزة العامة قضية جوهرية في اللغة الشعرية تمثلها الكلمات الجديدة المنحوتة neologisme، يحدد رومان ياكوبسون آثارها الشعرية في ثلاث علاقات:

1 ــ تخلق أثراً تناغمياً euphonique بارزاً، كما تبعث الكلمات القديمة من الناحية الصوتية التي تمحى نتيجة الاستعمال الدائم، خاصة وأننا لا يمكن أن نلمح في جزء بناءها الصوتي.

2 ــ إننا نتوقف عن الوعي بشكل الكلمات في اللغة اليومية، فهذا الشكل يموت ويتحجر، مما يجعلنا نتنبأ بشكل الكلمات الجديدة الشعرية المقدمة لنا كـ : in statu nascendi إن صح التعبير.

3 ــ إن معنى الكلمة يكون في لحظة ما، ثابتاً على الأقل، بينما يكون معنى الكلمات الجديدة محدداً بدرجة كبيرة بالسياق الذي يتطور ويجبر القارئ على تفكير اصطلاحي etymologique. وتتفرع عن العلاقة الأخيرة الآثار التالية:

ــ تجديد المعنى renovation du sens.

ــ الاصطلاح الشعري[1].

---

[1] R. J questions de poetique p = 20

وبالإضافة إلى قيمة خلق الكلمات في اللغة الشعرية، نلمح إجراء آخر يتمثل في تقريب الوحدتين يمكن أن يتجسدا في: التوازي، المقارنة، المجاز على مستوى الدلالة، وعلى مستوى الأصوات تمثله القافية والتجانس... ويلعب التكرار دوراً أساسياً في إبراز مكونات النسق اللساني في النسيج الصوتي للقصيدة، الشيء الذي يحرر الكلمات جزئياً من معناها الأصلي، إما بواسطة الترادفات أو الكلمات المشتركة لفظياً. ويعتبر دمج المعاني الحرفية والمجازية خصيصة شعرية مميزة، بلغت درجتها القصوى في الشعر المعاصر ـ خاصة الروسي ـ ذلك: "أن الإجراء المفضل لدى الشعراء المعاصرين هو استعمال الكلمة بالتزامن في معناها الحرفي ومعناها المجازي ...."[1].

وتتفاعل في بنية اللغة الشعرية عدة مستويات تحول البنيات اللفظية، وتحدد علاقات مختلفة عن تلك التي تحكم بنية اللغة اليومية. وللاقتراب من الخاصية المميزة للغة الشعرية، سنتعرف على بنيتين متعالقتين في الشعر هما: بنية النظم وبنية التوازي باعتبارها مسألتين أساسيتين في الشعر وفي الشعرية.

---

[1] نفس المرجع ص 22

مسألة النظم:

من القضايا التي تشتغل عليها الشعرية بشكل واسع، قضية النظم التي تتفرع عنها مجموعة من المباحث، تتعلق إما بالتعريف وتحديد القوانين، أو تنزع منزعاً وصفياً تجريبياً يهدف إلى تحليل الأنساق النظمية المختلفة واكتشاف آثارها في اللغة الشعرية. وتتقاطع في هذا المجال حقول معرفية عديدة كالموسيقى والبسكولوجية واللسانيات. وقد شهدت الفترات الحديثة انعطافات خطيرة بفضل تضافر هذه الحقول المعرفية، طبعت البحوث الخاصة بمسألة النظم بطابع موضوعي سواء من جهة التصورات، أو من جهة الملاحظة العينية التجريبية.

وتمثل المعالجة اللسانية ـ خاصة الفونولوجية ـ لمسألة النظم مع رومان ياكوبسون إحدى المحطات الأساسية في تاريخ "الشعرية" الحديث، حيث فتحت آفاقاً جديدة من خلال إعادة قراءة نقدية للتصورات السابقة، القديمة منها والحديثة، ومن خلال الاقتراحات النظرية والمخططات التطبيقية المعتمدة على الفنولوجية.

يقوم رومان ياكوبسون بإعادة قراءة للمناهج التي اعتمدت في بناء علم العروض prosodie. ومن خلال هذه القراءة النقدية يعيد بناء موضوع "النظم" فاحصاً ومتأملاً النماذج التي

اعتُمدت في هذا العلم. فيعرض لعلم العروض الخطي ــ المنطقي Graphico - logique مبيناً أن هذا النموذج قد ارتبط بالنحو قبل ــ علمي، فهو يهتم بصياغة قواعد دوغمائية، ويفرض على لغة معينة أصنافاً يستعيرها من أنساق لغوية أخرى: يونانية، لاتينية مثلاً. كما يتناول بالتحليل نموذج علم العروض ــ الحركي cinetique مشيراً إلى أن هذا النموذج قد تعرض لانتقادات عديدة من طرف saran و verrier. ومن بين هذه الانتقادات: عدم تمييز هذا المنهج بين النبر ومكوناته، وبين الزمن الموضوعي والذاتي. وبخصوص هذه النقطة، يشدد رومان ياكوبسون على الاختلاف الواضح بين الزمنين، فالزمن الموضوعي يتحقق في إيقاع اللغة التطبيقية، أما الزمن الذاتي فيتحقق في الإيقاع الشعري بفضل تقسيم الخطاب إلى مقاطع segments. وبالإضافة إلى هذين النموذجين العروضيين يذكر نموذج: علم العروض السمعي acoustique الذي يمثله sievers و verrier، والذي يميز هذا النموذج هو مقابلة المسموعات acoustèmes بمسلمات بسيكولوجية أصوات الكلام. واعتماداً على تحديد verrier: "بأن النظم بالنسبة للوزن سلسلة صوتية فقط، فلا يهمه هو الصوت، لا المعنى"[1] يستنتج رومان ياكوبسون بـ : أن وجهة النظر هاته تؤدي إلى نتيجتين سيئتين:

---

[1] R. J questions de poetique p – 45

1 ــ غياب التمييز بين العناصر الدالـــة والعناصـــر غير الدالة في الجملة.

2 ــ إلغاء مفهوم اللفظية الإيقاعية[1].

إن الافتراض الذي يتأسس عليه منهج نموذج العروض ــ السمعي كما يؤكد رومان ياكوبسون، هو افتراض وهمي لأنه يهمل وظائف اللغة وتأثيرات العادات اللسانية على المتكلمين. وكما يمثل ياكوبسون بالإنسان السربي الذي يستطيع بســـهولة إدراك الاختلافات الموسيقية في نبر الكلمة الروسية في الوقت الذي لا ينتبه الروسي إلى ذلك، فإن الاختلافـــات فـــي اللغـــة السربية عنصر فنولوجي مميز، أي عنصر دال. وبعـــد هـــذا التحليل النقدي لنماذج علم العروض، يطرح رومان ياكوبسون نموذج علم العروض الفونولوجي. وذلك في قوله: "يجـــب أن نعارض العروض (الإيقاعية) الحركية والســـمعية بـــالعروض (الإيقاعية) الفونولوجية[2].

لقد خضع "النظم" لتعريفات متنوعة، تبعاً لمراحل تاريخيـــة مختلفة، واتجاهات ومدارس أدبية، ونماذج عروضية متباينـــة. ويمكن أن نذكر من بين هذه التعاريف تعريفاً يربط النظم بمقوم من المقومات المكونة، ويحدد أثره في الوزن أو القافية، وهكذا

(1) نفس المرجع ص 45

(2) المرجع السابق ص 47

تقسيم، عادة، أحداث النظم على ثلاث مجموعات كبرى، مرتبطة بمفاهيم الوزن، القافية، الأشكال الثابتة. وتنبثق هذه المجموعات عن نفس المبدأ الذي يسمح بتمييز النظم عن النثر. وقد عرف هذا المبدأ ــ في مراحل مختلفة ــ أسماء متعددة منها: الإيقاع ـــ الدورية périodicité، التوازي، أو ببساطة التكرار"[1].

إن هذه الأسماء تبين المفهوم الذي يستند إليه العنصر المتكرر الذي يرتبط بمفاهيم لسانية ثلاثة هي: المقطع، النظم، الكمية. وتعرف هذه الأحداث تبعاً لوظائفها، فالمقطع يعتبر: "مجموعة صوتية مكونة من فونيم مقطعي وفونيمات أخرى غير مقطعية، ثانوية، الأول يمثل قمة المقطع، بينما تمثل الثانية الهوامش. ولا يتحقق المقطع إلا بفضل قراءة خاصة نسميها تقطيعية scansion. أما النظر فهو تفخيم يمس المدة، وارتفاع وتوتر فونيم مقطعي يميزه عن الفونيمات الأخرى، أما الكمية فتناسب أخيراً المدة الفونيمية التي تحمل في بعض اللغات وظيفة تمييزية"[2].

وتتفرع عن هذا التحديد ثلاثة أنساق وزنية:

---

[1] O. D / T. T: dictionnaire encyclopédique des sciences du langage p = 240

[2] نفس المرجع ص 241

1 ـــ الوزن المقطعي.

2 ـــ الوزن النبري.

3 ـــ الوزن الكمي.

ويمكن لهذه الأنساق الثلاثة أن تتفاعل فيما بينها على شكل من الأشكال النظمية وفي لغة معينة.

ويعتمد رومان ياكوبسون في معالجته لمسألة النظم على تعريف جيرار مانلي هوبكنس للنظم باعتباره: "خطاباً يكرر كلياً أو جزئياً نفس الصورة الصوتية"[1]. محاولاً تدقيق هذا التعريف ومستنداً على مفهوم "التباين الثنائي"، وبهذا الصدد يقول: "فمثل هذه الصورة تستخدم دائماً على الأقل تبايناً (أو أكثر من تباين ثنائي) بين النتوء العالي نسبياً والمنخفض نسبياً لمختلف فقرات المتوالية الفونيمية"[2]. ويتم هذا التباين داخل المقطع بواسطة التعارض بين الفونيمات التي تمثل قمة المقطع والفونيمات الهامشية. ويحكم هذا التعارض تتابع منتظم خاص ومتنوع اعتباراً لشكل ونمط النسق النظمي.

إن تحليل مسألة النظم يقتضي من وجهة نظر علم العروض الفونولوجي الذي يؤسسه رومان ياكوبسون: التفريق الواضح والجذري بين لغة النثر ولغة الشعر، وضرورة تحديد المكونات

(1) R. J. Essais de linguistique Generale p – 221

(2) نفس المرجع ص 222

الأساسية إلى تحقق للغة الشعرية معنى الاستقلالية. ومن بـين الطروحات النقدية التي قدمت كتفسير لهذه المسألة مـا قـرره منظرو مدرسة بوتيبنيا Botebnia، والـذي يجعـل طبيعـة التصوير (المجازية) مساوية للطبيعة الشعرية. وينتقد رومـان ياكوبسون هذا التصور مشيراً إلى أنه ــ أي تصور منظـري مدرسة بوتيبنيا Botebnia لا يتمثل في الاختلاف الـوظيفي بين نموذج التصوير التطبيقي ونموذج التصوير الشعري، كما أن الاختلاف الجوهري بين النموذجين قـد تمـت صـياغته بطريقة خاطئة.

إن ما يميز الطبيعة الصوتية في لغة الشعر هو هذا التركيز البارز على الشكل الصوتي. ومن ثم فإن الفارق بين الشـعر والنثر يكمن أساساً في الإيقاع. ورغم أننا نجد في النثر إيقاعاً ديناميا محدداً فإن الاختلاف شاسع بين النوعين الإيقاعيين. ففي اللغة التطبيقية يتم تمثل التوترات والحركات الصوتية وغيـر الصوتية بطريقة ضبط آلية يوفرها الإحساس الدينامي، أما في اللغة الشعرية فإن حمولة الأصوات الدلالية، وكذا المتواليـات والمقاطع النغمية، تكسب المظهر الصوتي قيمة مستقلة يوفرها الإيقاع الذي يعيد بناء الكلمة. وهكذا: فإن الإيقاع الدينامي للغة التطبيقية هو سيرورة ضبط آلية للزفير على طول الخطـاب. وعلى عكس ذلك، فإن الإيقاع الشعري وسيلة من الوسائل التي تجذب الكلمة من حالتها الآلية. وهذه مقدمة منطقيـة للتركيـز

المحمول على زمن الكلام، للإحساس الزمني Zeiterlebnis حسب اصطلاح البسيكولوجيين الألمان"[1].

إن الإشارة التي يطلق عليها verrior (الـــزمن الموســـوم) تتحقق، كما يقول ياكوبسون، إما بمســـاعدة نبـــر دينـــامي أو موسيقي أو زمني. كما أن إدراك الـــزمن الموســـوم يـــرتبط بالدورية باعتباره زمناً قوياً. وهكذا فإن توزيع دورة النبـــرات في نموذج ما يتعارض مع الخاصية غير المنتظمـــة للنبـــرات التي تتحقق في الأزمان الضعيفة. و"هكذا فإن الزمن الشـــعري هو — نموذجاً une Erwartungszeit — زمن توقع، أي إن نهاية فاصلة تجعلنا ننتظر علامة معينة، فهذا الزمن يفـــرض على الكلام، يحوله ذاتياً"[2].

إن تصور رومان ياكوبسون للأنساق النظمية يتأسس على مفهوم "الخروقات الممارسة على اللغة. ويمكن تحديـــد هـــذه الخروقات فيما يلي:

أ — خروقات تفرض على اللغة إيقاعاً منتظماً. وتقربها من التواقت isochronisme كما تقلص العلاقـــات الكميـــة بـــين المقاطع... وقد عيّن verrier هذا النوع، وأضـــاف رومـــان ياكوبسون الأنواع الآتية:

---

(1) R. J. question de poétique p = 42

(2) نفس المرجع ص 43

2 ــ عدم المطابقة بين القصور ــ الإيقاع الذاتي inertie rythmique والتمييز الحقيقي بين عناصر اللغة المعتبرة كعناصر لإيقاعية ــ توليدية ــ rythmo – genetique.

3 ــ إن سلسلة من العناصر الإيقاعية ليست لها علاقة مباشرة بالقصور ــ الإيقاع الذاتي.

ويخضع النسق النظمي لطبيعة النظام اللساني الفونولوجي في اللغة، فكثير من الخصائص الاختلافية بين الأشكال الوزنية، والعناصر الدالة وغير الدالة، والعناصر التطريزية prosodique تطبع النسق التظمي، وتقيم تمييزية دالة تحدد الفروقات الدقيقة والمسافات المحددة. إن كل نسق نظمي: "يختار لإبراز بعض العناصر التطريزية، والنتيجة الوظيفية لهذا الاختيار هي أن المقاطع والنبرات وجزء المقطع اللفظي الطويل الذي يقع عليه النبر (وحدات كمية دنيا في اللغة تعارض الأصوات الطويلة بالمخطوفة) تظهر مُحَوَّلَةً إلى وحدات قياس"(1).

إن العناصر التطريزية باعتبارها ظواهر "هامشية" توجد في جميع اللغات. كما أن هذه اللغات تتوفر على مكونات متنوعة لاستخدام هذه العناصر التي ترتبط بالضرورة بالفعالية

(1) Roman Jakobson / Linda wauch: la charpente phonique du lanagage p = 230

الصوتية. وقد حددت وظائف العناصر التطريزية والعناصر الصوتية منذ تروبتسكوي في ثلاث وظائف هي: ".....الوظيفة التمييزية، الوظيفة التحديدية، الوظيفة التزايدية culminative"[1]. ويقابل هذه الوظائف المفاهيم التالية: نغمة ton، التنغيم intonation، النبر accent.

ويوفر التحليل الفونولجي معطيات علمية لمعالجة الخصائص النظمية في نسق من الأنساق. فالعناصر التطريزية التي تتمثل في النبر الدينامي، تنغيم الكلمة والكمية (نبر المدة). ويبين رومان ياكوبسون اعتماداً على هذه العناصر أن بعض اللغات يرقى فيها عنصران من العناصر إلى درجة العنصر الدال، في حين يغيب في لغات أخرى. ويستند على تحليل مقارن بين اللغة الروسية والسربية بخصوص النبر، فيستنتج أن "الاختلاف بين المنبور وغير المنبور يرجع إلى النظام الفونولوجي في السربية إلى اختلاف في الارتفاع. أما في الروسية فإن الاختلافات الموسيقية في النبر يتم تحديدها خارجيا"[2]. إن ما يميز النبر في اللغة الروسية ـ كما يؤكد رومان ياكوبسون ـ ليس الخاصية الموسيقية بل الخاصية

[1] O. D / T. T Dictionnaire encyclopedique du science du langage p – 230

[2] R. J. questions de poetique p – 47

الزفيرية (الضغط pression). وهكذا تعتبر الخاصية الأخيرة عنصراً فونولوجيا. ويمكن: "أن تفقد الكلمة نبرها الديناميي أو – إضافة إلى هذا – يمكن أن نأخذ مقطعاً غير منبور نبراً قوياً مساوياً للمقطع المنبور، ولكن من المستحيل أن يحول مقطع منبور نبره الديناميي إلى مقطع غير منبور"[1].

إن نبر الكلمة يرتبط بالضغط الذي يرجع إلى النبر الديناميي للتركيب الذي يعتبر جزءاً من النظام الفونولوجي. ووفق هذا التحليل يصوغ رومان ياكوبسون: القوانين الآتية:

1 – يكون النبر الديناميي في الكلمة ممكناً باعتباره عنصراً فونولوجياً في الحالة التي يكون فيها مصحوباً بعلاقات كمية خارج نحوية Extra grammatical. [...]

2 – إذا تواجد عنصران مستقلان: النبر الديناميي للكلمة، والكمية في نظام فونولوجي للغة ما، بعد التغيرات الصوتية، فإن أحد هذين العنصرين يقصى من النظام الفونولوجي[2].

إن التغيرات الفونولوجية تقتضي تغيرات في الدلالة، وهذه الفرضية تستلزم تمييزاً بين العناصر الدالة في النظام

(1) نفس المرجع ص 48

(2) نفس المرجع ص 48

الفونولوجي التي يترتب عن تغيرها تغير في المعنى، والعناصر غير الدالة أو الخارج – نحوية التي ترتبط إما بمجازات صوتية تعبر عن عاطفة أو انفعال، وإما بتلوينات صوتية مصطنعة كالتي نلاحظها في اللغة اليومية. وتظهر العناصر الخارج نحوية بالمقارنة مع العناصر الفونولوجية باعتبارها علامات سلبية مرتبطة بالعادات الصوتية المحلية. وهكذا تعتبر مسألة تعيين الحدود بين العناصر الفونولوجية والعناصر الخارج نحوية من القضايا الأولية التي يمكن بواسطتها اكتشاف الخروقات المتنوعة التي يحدثها الشكل الشعري على اللغة. وبهذا المعنى: "فعلم العروض، أي الاختصاص الذي يدرس حسب تعريف أصوات اللغة بالنظر إلى العناصر التي تلعب دوراً في نظم هاته اللغة، يجب أن نلائم ما سبق ذكره أي نُمَيِّز بين:

1 ـ الأساس الفونولوجي للإيقاع.

2 ـ العناصر المصاحبة الخارج نحوية.

3 ـ العناصر الفونولوجية المستقلة، وبالتحديد العناصر غير المتصورة في اللغة الشعرية كمكون لـ " inertie rythmique "[1].

---

[1] R. J. questions de poetique p : 52

إن مفهوم "الخروقات" من المفاهيم الأساسية التي تتشكل بواسطتها بنية الشعر، سواء من ناحية النسيج الصوتي أو الأبعاد الدلالية. وقد بنى رومان ياكوبسون هذا المفهوم كرد فعل على التصورات التقليدية التي تعتبر النموذج القديم أصلاً من الأصول التي لا يمكن اختراقها. من ثم فإن المقاييس النظمية — في تصور رومان ياكوبسون — ترتبط أساساً بالقيم المهيمنة في عصر من العصور، وفي مدرسة من المدارس الشعرية. وبهذه الطريقة تؤدي حركة شعرية موجهة ضد الخروقات التطريزية، بالضرورة إلى خروقات تطريزية أخرى"[1].

إن البناء النظري والتطبيقي في مسألة النظم، يقوم عند ياكوبسون على دراسة فقارية لأشكال نظمية متنوعة، كما أن التبحر اللساني والفونولجي يمثلان دعامة جوهرية في التحليل والنقد والتصنيف. فالأشكال النظمية الثلاثة، يحكم كل واحد منها شبكة من العلاقات المتبادلة الدقيقة، لهذا فإن عدد الفونيمات المقطعية يكون محدداً وثابتاً (وحدة المدة) في النظم المقطعي، بينما يمثل التباين بين البروز وانعدامه والمقاطع المنبورة وغير المنبورة أساس النظم النبري الخالص. ويمثل تعاقب المقاطع الطويلة والقصيرة خاصية النظم الكمي. وعلى

---

[1] نفس المرجع ص 54

هذا الأساس، يختبر رومان ياكوبسون أنساقاً نظمية متنوعة. ويمثل الجدول الآتي نموذجاً وصفياً يستند على مفاهيم: الإيقاعية، والعناصر الفونولوجية المستقلة، والعناصر الخارج – نحوية لنسق النظم التشيكي والروسي واليونساني القديم والصيني:[1]

المقطع الإيقاعي	قاعدة إيقاع فونولوجية	عناصر خارج نحوية	عناصر فونولوجية مستقلة
التشيكي	حدود الكلمة	نبر دينامي	كمية
الروسي	نبر دينامي	كمية	حدود الكلمة
يوناني قديم	كمية	---------	حدود الكلمة نبر موسيقي
صيني	نبر موسيقي	نبر دينامي	---------

إن الأنساق النظمية المختلفة تستعمل في أغلبها "المقطع" في بناء نماذج وزنية خاصة، غير أن الوظيفة التي تسند للمقطع

[1] نفس المرجع ص 52

تختلف وتتنوع من نسق لأخر، وقد أمكن نمذجة الأصناف الوزنية كما يلي:

1 ــ الأنساق systemes الخالصة: التي يحدد الوزن فيها مكون واحد، وتنقسم إلى: مقطعي كمي نبري، قراري.

2 ــ الأنساق الممزوجة: وتضم الأنساق النظمية الآتية: المقطعية ــ النبرية. المقطعية ــ النغمية syllabo – tonal ، المقطعية القرارية(1).

وتمثل هذه الأنساق الوزنية المختلفة قواعد تحفظ للغة الشعرية بنية منتظمة، تبقى مفتوحة أمام التنوعات التي تتيحها الإمكانات الفونولوجية والخارج ــ نحوية، والتي يعبر عنها بالإيقاع، أي أنماط التحقق الملموس للنسق الوزني. ومن هذا الموقع يميز رومان ياكوبسون بين مفاهيم أساسية غالباً ما تم الخلط بينها، وهي على التوالي:

أ ــ نموذج البيت modele de vers.

ب ــ مثال البيت الشعري Exemple de vers.

ويترتب عن هذا التمييز التفريق بين:

آ ــ نموذج الإنجاز modele d'éxecution.

---

(1) J. M / J. T Introduction a l'analyse linguistique de la poesie Pree univeritaire I ed 1982 p 23 – 242.

ب ــ ومثال الإنجاز exemple d'exécution.

وبهذا الطرح يهدم رومـــان ياكوبســـون مجموعـــة مـــن التصورات السابقة، كما أن: "هذا التمييز بين البيـــت وإنجـــاز البيت، يبين مسبقاً حدود هذه المقاربة السمعية للنظم"[1]. مـــع العلم بأن هذه المقاربة ترتكز على قاعدة محددة يمثلها التلاحم بين الصورة السمعية والصورة المفهومية الدلالية، لأن رومان ياكوبسون يشدد على العلاقة المتينة بين الصوت والمعنى فـــي كثير من أبحاثه اللسانية والشعرية.

ويمكن أن نكتشف مثل هذه الارتباطـــات علـــى مســـتوى (القافية)، الحاملة لقيمة تناغمية مســـتقلة اعتبـــاراً لوظائفهـــا الخاصة، وتعالق الصوت والمعنى في بنائها وموقعها.

إن الأسس التي تحكم القافية تتنوع وتتعـــدد، فقـــد تـــرتبط بالتسجيع أو الجناس الذي يعكس المعادلة الصوتية الدلالية في اللغة اليومية. كما أن الكلمات التي تكون القافية تختلف حسب المقولات النحوية التي تنتمي إليها، ونماذج ترتيبها في قصيدة معينة، والصيغ التركيبية التي تتجاور أو تتشابه داخلها. وهكذا فإن الفرضية القائمة على تحرير الطاقة الصوتية للقافية مـــن الرابط الدلالي الحرفي، تمثل الخلفية الأساس التي يرتكز عليها

[1] O. D / T. T dictionnaire encyclopedie des sciences du language p - 243

رومان ياكوبسون في محاولته إقامة المراحل الآتية في تاريخ الشعر الروسي بالنظر إلى وظيفة هذا المكون البنائية:

1 ــ ترتبط الكلمات التي تشكل القافية قبل كل شيء بواسطة التجاور من وجهة نظر دلالية.

2 ــ إن الكلمات التي تشكل القافية لا ترتبط فيما بينها بعلاقة دلالية، ولكنها تتجمع حسب أهميتها في التصميم الدلالي بنبر دلالي ما.

3 ــ إن الكلمات الخارجية المقصودة باعتبارها جوهرية، والكلمات غير الجوهرية في التصميم الدلالي (مثل النعوت)، ترتقي اصطناعيا إلى صف الكلمات الحاملة للقوافي.

4 ــ إن الكلمات المنطقية التي تخرج تقريباً عن النص، والمأخوذة adhoc s تتجاوب فيما بينها في التقفية. وهكذا تظهر القيمة التناغمية cnphonique للقافية[1]. ومنْ هنا فإن القافية تحمل قيمة مزدوجة تتمثل في الطبيعة الصوتية والطبيعة الدلالية. الممتزجتين. كما أن طبيعة ونمط الوقفات التي ترجع إلى التركيب أو إلى النظم وأشكال الإنشاد تنشأ من تأثيرات بارزة تبين طبيعة القوافي وأصنافها. إن جميع أشكال القوافي، كما

[1] R. J. questions de poetique p = 22 - 23

يؤكد رومان ياكوبسون، تكون إمّا نحوية أو لا نحوية antigrammaticales ولا يمكن أن توجد قوافي لا نحوية، لأن علاقة الصوت بالبنية النحوية ترقى إلى درجة المكون المحدد لماهية القافية. وبما أن بنية التوازي تهيمن على الشعر فإن القافية هي تركيز وتكثيف لهذه المسألة العامة، يقول رومان ياكوبسون بأن القافية: "ليست سوى حالة خاصة مكثفة نوعاً ما لمشكلة أكثر عمومية، بل ويمكننا القول إنها خاصة بالشكل الأساس في الشعر الذي يتمثل في التوازي"(1).

مسألة التوازي:

يحتل مفهوم التوازي مكانة مركزية في نظرية رومان ياكوبسون الشعرية، فهو أساس بناء الشعر ومحور العلاقات المورفو ـ تركيبية والدلالية بين عناصر المتتاليات المكونة للبيت والمقاطع في نسيج القصيدة الشعرية. وقد أدرج في الشعرية باعتباره وسيلة تحليلية وإجراء دقيقاً بفضله يمكن اكتشاف البناء اللغوي لمختلف الآثار الفنية، إضافة إلى آثار

(1) R. J. Essais de linguistique generale p : 235

هذا البناء على التلقي. ويعتبر هذا المفهوم حديثاً بالمقارنة مع المفاهيم المعروفة في البلاغة الكلاسيكية.

ولقد تبلور مفهوم التوازي بفضل الأبحاث الخاصة بالكتب المقدسة ــ التوراة بخاصة. ويعتبر روبير لوث Robert lowth من المختصين الأوائل الذين أدرجُوا التوازي كوسيلة تحليلية في مقاربة الشعر العبري، معتمداً في استنتاجاته القيمة على تناسب الشطرين اللذّين يكونان البيت باعتبارهما طرفين متناسبين ومنظمين يشكلان ما عرف بـ "توازي الأطراف". وبفضل هذه الدراسة المنظمة أُدخِلَ مفهوم التوازي لأول مرة في مجال الشعرية. ويعرف روبير لوت التوازي قائلاً: " إن تناسب correspondance البيت (السطر) مع غيره، أسميه توازياً. عندما يرسم عنصر أسلوبي ثان بجوار العنصر الأول أو قبله ويكون مناسباً، أو معارضاً، من ناحية المعنى، أو يكون قريباً إليه من ناحية البناء النحوي. أتحدث إذن، عن البيت المتوازي. أما الكلمات أو التراكيب التي تتجاوب من بيت لآخر، فأسميها كلمات متوازية. ويمكن أن تقسم الأبيات إلى ثلاثة نماذج: توازيات الترادف synonymie، توازيات التعارض antithèse، توازيات التركيب systhese (...) ويجب أن نلاحظ بأن أنواع التوازيات المختلفة تتداخل باستمرار، وهذا التداخل يعطي بناء المجموع جمالاً وتنوعاً"[1].

[1] R. J. question de poetique p = 235

إن كل نموذج من نماذج التوازي الثلاثة التي حددها لوت يتميز بخاصيات معينة تميزها عن غيرها، كما تبرز طبيعة العلاقات التي تنتجها أو تنجم عنها. فتوازي الترادف يحافظ على ثبات واستقرار البنية المعنوية؛ في الوقت الذي تتحول فيه بنية التعبير وتتغير. إن الأبيات في هذا النوع من التوازي: "تتناسب بالتعبير عن نفس المعنى بكلمات مختلفة، ولكن متطابقة من ناحية معنوية. عندما يتكرر مباشرة عنصر أسلوبي كلياً وجزئياً يتعرض التعبير إلى التغيير، ولكن المعنى يبقى ثابتاً أو يتغير جزئياً..."[1] كما يمكن لهذا النوع من التوازي أن يتجاوب مع مكون رد الأعجاز على الصدور.

أما توازي التعارض فيتم في المستويين معاً: التعبيري والمعنوي بالنسبة للكلمات والأصوات. ويشتمل توازي التركيب على علاقات ترابطية نحوية تقوم على أشكال المشابهة أو التباين. ويمكن، اعتماداً على هذا التصنيف، أن نلاحظ تفرعاً تصنيفياً آخر، اعتماداً على معيار دلالي يتمثل في:

1 ــ علاقات ترادفية خالصة [.....].

2 ــ علاقات دلالية مؤسسة على أزواج ثنائية جوهرية [....].

---

[1] المرجع السابق ص 236

3 ــ علاقات دلالية مؤسسة على إضاءة نوع خاص بجنس واحد، وفي هذه الحالة يصير التوازي وسيلة لوصف الكلية بإبراز العنصرين المختلفين من هذه الكلية.

4 ــ علاقات ترابط الجنس [....][1].

إن عمل روبير لوت يعتبر لبنة أساسية فتحت آفاقاً واسعة لدراسة تقاليد أدبية قديمة: شفوية ومكتوبة، على أساس تقنية التوازي الشعري، وتبدو دراسات نيمن وبوبر newman et papper حول قضايا توازي الكتاب المقدس رائدة في هذا المجال، إذ أنها: "تمكننا من إلقاء الضوء على الواشجة الجديدة والعميقة التي تجمع المكتوبات الشعرية العبرية والاوغاريتية في مجال الوزن والفقرة، وفي مادة "التوازي التكراري" وهو تعبير يستعمل على الدوام في الدراسات السامية"[2].

كما أن دراسة بلير Blair لشعر العبريين، والتي تستلهم مادتها وروحها من العمل التأسيسي لروبير لوت، توضح طبيعة تشكيل الكلمات والجمل والفقرات في الشعر العبري، كما تبين طبيعة هذا التشكيل وخصوصيته، مُدعّماً بذلك آراء لوت ومستخلصاً أهمية الالتفات إلى هذه الخاصية الكتابية.

---

[1] J. M / J. T Introduction á l ' Analise de la poesie p = 206 - 207

[2] R. J. Questions de poetique p – 236

يقول في هذا الإطار: "إنها ــ أي الكتب المقدسة ــ تجعلنا نعرف الذوق السائد في زمن وفي بلد يقع بعيداً عنا. إنها تمثل نوعاً من التأليف مختلف جداً عن التأليف الذي تعودنا عليه. مما يجعلها تؤثر فينا لجمالها [...]، فالشكل العام للشعر العبري هو الوحدة والثبات في نوعه. إنه يرتكز على تقسيم كل مدة إلى طرفين متساويين في الغالب ومتناسبين في المعنى والصوت. فالطرف الأول من المدة يشتمل على فكرة أو شعور موسع، ويتكرر بكلمات مختلفة في الطرف الثاني، أو ينبثق عن التباين، وذلك باستعمال جملتين ببنية واحدة، دائماً، وبعدد متساو من الكلمات تقريباً"(1).

وبهذا المعنى يصير التوازي أساس بناء التوراة كما يظهر بنفس الشكل أساس بنية الشعر العبري. فالتنظيم التطريزي واللفظي الملاحظ في الدراسات المختصة في هذا المجال يؤكد هيمنة بنية التوازي في هذه النصوص. إن التوازي في الشعر ليس صنعة متكلفة، وإنما هو حقيقة ممارسة في تقاليد فنية تجعل منه ضرورة فنية وجمالية، ويمكن أن نذكر من بين هذه التقاليد مثلاً: التوازي في الشعر العبري، التوازي في الشعر الصيني، وفي الشعر المنغولي، والشعر الشعبي الروسي الذي

---

(1) J. M / J. T. Introduction a l' analyse linguistique de la poesie p = 203

يعتبر حقل اشتغال رومان ياكوبسون العلمي، بالإضافة إلى القصائد القديمة والمعاصرة التي اكتشف أن بنية التوازي هي أساس بنيتها وهندستها، والتوازي في الشعر الهندي... وفي مجال البحوث التي استندت إلى مبدأ التوازي كوسيلة بنائية وتحليلية، نجد دراسة دافس J. F Devis حول "الشعر الصيني"، والتي اقتفى فيها أثر روبير لوت، مسجلاً تشابهاً وتماثلاً بين مميزات الشعر الصيني والشعر العبري: "ملاحظاً أن النوع (النموذج) الثالث من التوازي الذي حدده لوت كتركيب بنائي: "هو إلى حد بعيد أكثر تواتراً عند الصينين. أما النوعان الأخيران: "فنجدهما مصحوبين، في العموم، بالنوع الثالث. فالتناسب على مستوى المعنى سواء ارتكز على التماثل أو المعارضة، يدعم في أغلب الأحيان بتناسب على مستوى البناء"[1]. ويتسع إجراء التوازي كما يؤكد ــ رومان ياكوبسون ــ ليشمل كل الشعر الصيني، ذلك أن أشكال التوازي المتنوعة: النحوية منها والمعجمية، تهيمن لدرجة عليا على الإنتاجات اللفظية الصينية. وكما يقرر رومان ياكوبسون مستشهداً بشمليوسكي chmielewski: "فإن التوازي المتعدد الأشكال (والأكثر بروزاً في الأسلوب الأدبي الصيني) يرتبط بوشايج قريبة، ومتناغمة مع "المفهوم الصيني للعالم"، المعتبر

[1] R. J / questions de poetique p = 237

كلعب بمبدأين متعاقبين في الزمن ومتعارضين في الفضاء. وينبغي أن نقول عكس ذلك: زوجين بدل مبدأين، لأننا نعتقد أن العالم مقسم إلى أشياء ثنائية من الأوصاف، ومن المظاهر المزدوجة والمتعارضة..."[1].

وتوضح هذه النماذج التقليدية وغيرها، القيمة التأسيسية لبنية التوازي، مما يرفعها إلى مرتبة القيمة العليا المميزة للشعر، على حد تعبير جيرار مانلي هوبكنس. الأمر الذي جعل رومان ياكوبسون يعتبرها من المشاكل والقضايا الجوهرية في الشعرية، ومن المكونات العليا في بناء القصيدة. إن نظرية رومان ياكوبسون حول التوازي تستمد أصولها من هذه الدراسات من جهة ومن التحليل المباشر للشعر الشعبي الروسي ونماذج من القصائد الشعرية القديمة والحديثة من جهة أخرى.

ولا يخفي رومان ياكوبسون إعجابه الشديد بعمل جيرار مانلي هوبكنس الذي أدرك بحدسه النافذ — وفي مرحلة متقدمة — قيمة بنية التوازي كمكون شعري جوهري. يقول جيرار مانلي هوبكنس: "إن الشعر باعتباره تقنية فنية — ويمكن القول بأن كل تقنية فنية ترجع إلى مبدأ التوازي — إن بنية الشعر ترتكز على تواز مستمر، سواء تعلق الأمر بالتقنية التي نسميها

(1) المرجع السابق 239

عادة توازيات الشعر العبري، أو بموسيقى الكنيسة في شكلها التجاوبي، أو بتعقيدات النظم اليوناني أو الإيطالي أو الإنجليزي"[1]. ويضيف جيرار مانلي هوبكنس مدققاً هذا التعريف ومبيناً أنماط التوازي وطبيعة كل نمط، مقرراً أن هناك نوعين من التوازي، الأول ويكون التعارض فيه موسوماً، أما الثاني فالتعارض فيه انتقالي أو تلويني.

وبالنسبة للبيت فإن التوازي الأول – أي الذي يكون التعارض فيه موسوماً – ووحدة الفاعل والمؤثر في الإيقاع والوزن والجناس والقافية وهذه الآلية... تترك آثارها على الدلالة بأشكال متفاوتة. لقد اعتبر جيرار مانلي هوبكنس شاعراً ومنظراً بارزاً في الشعرية، وذلك بعد اكتشاف حركة الشكلانيين الروس لخاصية التوازي التي تميز اللغة الشعرية، بفضل أبحاث عدة حول الشعر الشفوي والتراث الفولوكلوري الروسي: أبحاث أوسيب بريك في مقاله: " Rit mi Hopkins". أبحاث شافرانوف....

ولقد اشتغل رومان ياكوبسون على عدة نصوص شفوية شعبية روسية: مجموعات كريشاد نيلوف، كما حلل عدة قصائد كقصيدة الشفاء مثلاً التي اتخذها نموذجاً للتوازي النحوي... الخ. فمن خلال هذه الأعمال وغيرها استنتج أن : "هناك نسقاً

[1] نفس المرجع ص 234

من التناسبات المستمرة على مستويات متعددة: في مستوى تنظيم وترتيب البنى التركيبية، وفي مستوى تنظيم وترتيب الترادفات المعجمية وتطابقات المعجم التامة، وأخيراً في مستوى تأليف الأصوات والوضعيات التطريزية"[1].

إن تفاعل البنية النظمية والنحوية والتركيبية والدلالية، يجعل الشعر يتميز بطابع انكفاءات متتالية تجعل منه (رجوعاً Versus) في مقابل النثر الذي يتقدم إلى الأمام prosus. وهكذا يؤكد ياكوبسون على إمكانية تمثيل التقنية الفنية على شكل انكفاءات تكرارية تميز اللغة الشعرية. وهذه الطبيعة تجعلنا نصطدم بجملة من القضايا تتقاطع على مستويات لسانية عديدة. ومن هنا يصوغ رومان ياكوبسون الأسئلة المركزية الآتية:

* هل تقوم العلاقة بين الماهيات المتناسبة حسب المواقع علاقة المشابهة؟

* ما هي حدود هذه المشابهة؟ وما هي طريقتها؟

يعتبر التوازي ـ اعتماداً على الأسئلة المطروحة ـ وسيلة فعالة في بناء ونقد الشعر، ذلك أن الاعتماد عليه يمكننا من إدراك العلاقات بين مكونات، وكذا تنوعات هذه العلاقة في

---

(1) رومان ياكوبسون: قضايا الشعرية، محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال ص 106.

إطار تمظهرات اللغة المختلفة، وذلك بفضل التحديد الدقيق الذي يعطيه رومان ياكوبسون لهذا المفهوم.

يعرف ياكوبسون التوازي باعتباره شكلاً من أشكال المزج بين العناصر الثابتة والمتغيرة التي تعمل على تفاعل البنيات الصرفية والتركيبية والمعجمية والصوتية. وهكذا: "فإن أي شكل من أشكال التوازي هو خليط من الثوابت والمتغيرات. وكلما كان توزيع الأوائل صارماً تكون المتغيرات قابلة للإدراك وفعالة، ويحرك التوازي بعامة كل مستويات اللغة: "العناصر المميزة ـ سواء تعلقت بالعروض أمْ كانت خاصة بالكلمة ـ الأصناف والأشكال المورفولوجية والتركيبية، الوحدات المعجمية في اختلافات طبقاتها الدلالية؛ سواء كانت متقاربة أو متباعدة فإنها تكتسب قيمة شعرية مستقلة"[1]. ويحكم تبادل التأثيرات بين هذه البنيات العامة في البيت المتوازي توزيع يرتبط ويمتد في السياق، بواسطة التناظرات بين الأبيات المزدوجة. ونظراً لطبيعة هذا التوزيع الحر فإن منتوج فعاليات التناسب يمنح الشعر تنوعاً لا متناهياً. وتمثل هذه الحقيقة فارقاً بين القافية والتوازي المعمم، فإذا كان تناسب الأصوات في القافية إلزامياً، فإن: "المستوى اللساني لأيّ تناسب بين الكلمات

---

[1] R. J / questions de poetique p : 271

المتوازية هو موضوع اختيار حر. فالتوزيع المتموج لمختلف الوحدات اللسانية والمتغيرات والثوابت يمنح الشعر القائم على قاعدة التوازي خاصية التعددية، كما يمنحه إمكانـات متعـددة لتمييز الأجزاء أو تجميعها عكس ذلك، وذلك بأخذ المجمـوع بعين الاعتبار"[1].

إن تركيب الأبيات المتوازية يقوم إما علـى المشـابهة أو التباين اللذين يحددان أشكال المتعالقات بين الأزواج، ويمكن أن ندرك امتداد فعل التجاور وعلاقة التبادل بين المظهر الخارجي والدلالة في الأبيات القائمة على أساس المشابهة والمجاورة أو التباين اعتماداً على التوازي، كما أن تمييز أنواع الترابطـات يعين طبيعة العلاقة المدركة أو المجردة في البنية اللغوية. ولا تقتصر هذه الفعالية على الأشطر المزدوجة، بل تشمل الأشكال المتعاقبة والفقرات الشعرية والقصيدة بأكملها: " إن التناظرات بين الأبيات المزدوجة القائمة على تقليد عفـوي، هـي لعـب بالتعالقات في سلم مختزل من جهة بين الأشـطر المزدوجـة. وبين بيتين متكاملين معنوياً ومتعاقبين في إطار عام من جهـة أخرى. ويمكن في نهاية المطـاف، لمبـدأ التفـرع الثنـائي Dicohotomic الذي يعتبر أساس البيتين المتكاملين معنويـاً

[1] المرجع السابق 276

أن يتواصل في سلسلة أكثر طولاً، مثل فقرتي أغنيــة كيرشــا "Kircha"[1].

ويختلف التوازي باختلاف الاستراتيجيات البنائية في الكتابة الفنية مشكلاً مجموعات من الأشكال الأصلية التي تطبع تقاليد شعرية كتابية وشفوية متنوعة. وعكس ما يبدو لأول وهلة فإن الأبيات (المعزولة)، كما يبين رومان ياكوبسون، تمثــل هــي الأخرى أشكالاً من التوازيات العميقة: "... فكيفما كان وضع الأبيات فإن لكل منها بنيته، ولكل منها وظائفه، التــي تــرتبط دائماً بالسياق اللغوي البعيد أو القريــب. إن مهمــة التحليــل اللساني تكمن في كشف آلية هذا المجموع من الدواليب بشــكل عام بالنظر لنظام التوازي الداخلي"[2].

إن نظرية رومان ياكوبسون الشعرية القائمة على التوازي تمثل بشكل عام عمق تأمله البنيوي في الشعر، كما أن طبيعــة هذا التأمل العميق تفتح آفاقاً خصبة لاختراق اللســانيات بنيــة النص الشعري وتفكيكها.

---

(1) المرجع السابق 271

(2) المرجع السابق 279

خـاتمــة

تتضافر جملة من العوامل، فتمارس على الموضوع سلطة تقلص من امتداد القضايا التي تشكل البناء الشعري واللساني عند رومان جاكوبسون في هذه الوقفة الواصفة، لتعدد معرجاتها وجزيئاتها. ويتبين من خلال المحورين السالفين: اللسانيات نظرية التواصل / اللسانيات الشعرية تفاعلُ الحقول العلمية الثلاثة في أبعاد هندسية محددة. فنظرية التواصل ترتبط باللسانيات من خلال نمذجة العملية التواصلية ـ اللفظية بخاصة ـ عند هذه النقطة تنفصل نظرية التواصل عن اللسانيات مشكلة خلفية نظرية علمية تتفرع عنها قضية الوظائف اللغوية، ومن هذه النافذة تتسلل الشعرية مؤسسة مشروع دراسة اللغة التي تهيمن عليها الوظيفة الشعرية. وعلى

هذا الأساس، تتنوع أبحاث الشعرية وتأخذ ميزات خاصة يتم اكتشافها والوصول إليها بفضل الدراسات اللسانية الشاملة لمختلف التمفصلات اللغوية وتنوعاتها.

إن رومان جاكوبسون يعتبر الشعرية علماً متضمناً في اللسانيات، وهذا التصور يرتبط بالخلفيات الفلسفية والمعرفية العامة التي ارتكزت عليها الشكلانية الروسية، ومحاولات البناء الجديدة التي انطلقت في الفترات الحديثة. وقد كان التركيز على القيمة اللفظية للأثر على سبيل المثال وقفة تأمل نقدية في التراكم النقدي السابق الذي هُدِمَ وقامت على أنقاضه تصورات جديدة.

ولقد اتخذت نظرية الشعرية عند رومان جاكوبسون صيغة مفتوحة ومرنة من خلال الإجراءات المعتمدة في الطرح النظري وامتحان هذه الإجراءات في العمل التطبيقي المتنوع، المقارن، والمُحلل لعدة نماذج أدبية مختلفة من الناحية الزمنية، ومن ناحية الأمم التي أنتجتها. وهكذا فإن الطرح العميق لمسألة النظم يتجاوز عدة تصورات تقليدية لدلالته وتفاعله مع كل عناصر البناء الشعري. كما أن مسألة التوازي في بنية الشعر الأساسية تؤكد دلالة المقولات اللسانية في الأثر الفني وتبرز تفاعلاتها وإيحاءاتها.

ومن ثم فإن أعمال رومان جاكوبسون العلمية تمثل نقطة انطلاق الأبحاث العلمية في تاريخ الشعرية في العصر الحديث.

ويلمح ذلك في الأبحاث التي اعتمـــدت فـــي بنـــاء موضـــوع الشعرية على اللسانيات أو على الدلائلية أو البلاغة، أو تلـــك التي اعتمدت في بناء موضوع الشعرية على الشعرية ذاتهـــا. ويفرض واقع دراسة الشعر في العالم العبي غير العربي قراءة هذا المخزون ونقده وإعادة بنائه.

الفهرس